المكتبة التاريخية
باشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٤

طائفة الإسماعيلية

تاريخها . نظمها . عقائدها

للدكتور محمد كامل حسين



الناشر : مكتبة النهضة المصرية

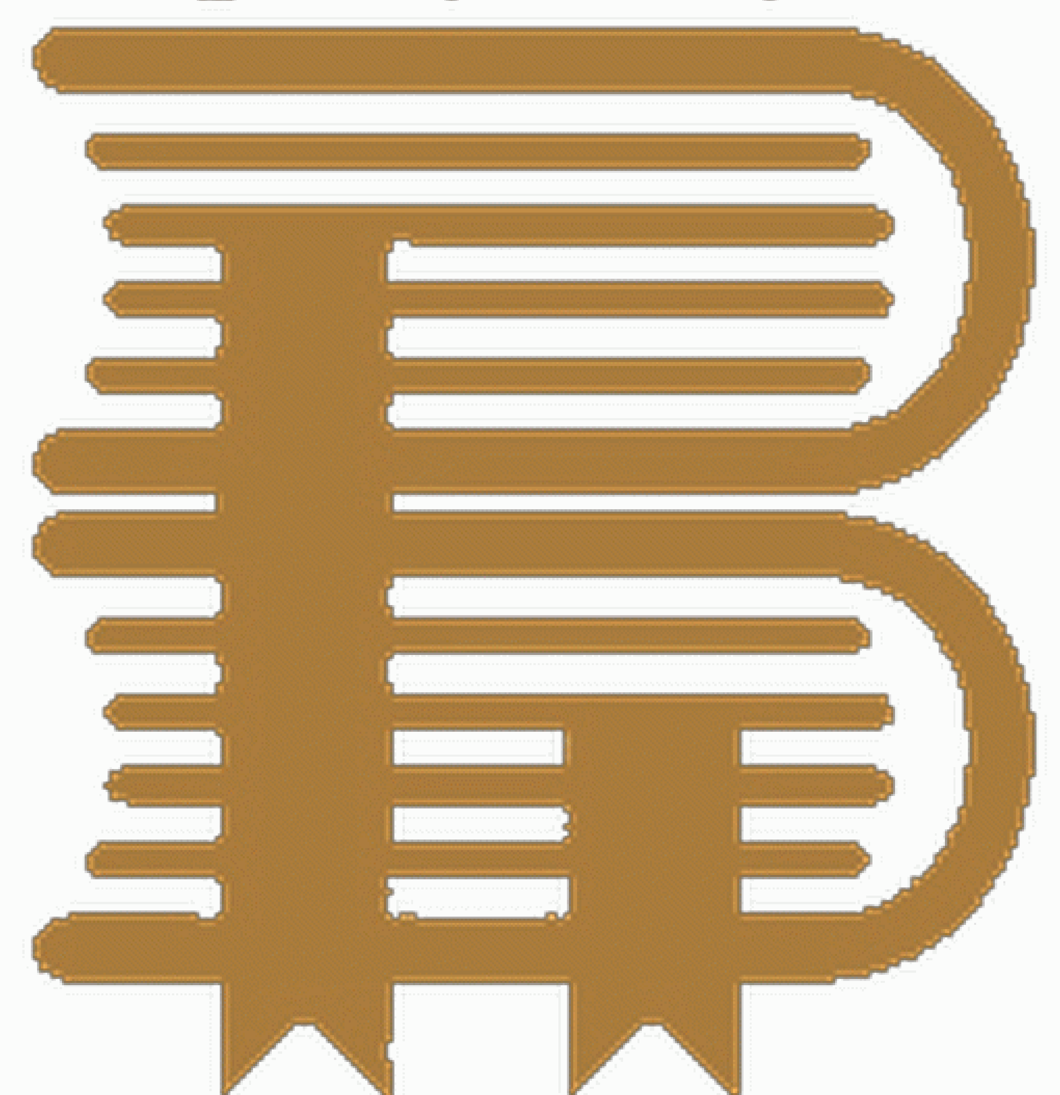
المكتبة التاريخية
بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٤

طائفة الإسماعيلية

تاريخها . نظمها . عقائدها

للدكتور محمد كامل حسين
أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب بجامعة القاهرة



ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا - القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهرس الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

لا أكاد أعرف أستاذاً تعشق موضوع تخصصه ، فأخلص له ، وبذل له من ذات نفسه وقلبه وعقله ، وفرغ له حتى لا يكاد يريم عنه ، كما فعل زميلي الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . فقد تخصص الصديق الفاضل فى الدراسات الإسماعيلية منذ سنوات بعيدة ، وحشد لها جهوده ، ووقف عليها نشاطه ، حتى أصبح — بحق — من روادها الأول ، لا بين الناطقين بالضاد فحسب ، وإنما بين سائر علمائها فى شتى أقطار الأرض .

وقد استطاع الدكتور كامل حسين بوسائل مختلفة — وله فى ذلك قصص شائقة — استطاع أن يجمع لنفسه طائفة كبيرة من الكتب والرسائل المخطوطة فى تاريخ الفرقة الإسماعيلية وعقائدها ، قلّ — بل ندر — أن توافرت لغيره من الباحثين فى هذا الحقل . ولا غرو فقد عرف عن الإسماعيليين حرصهم الشديد على تراثهم

الفكرى حتى ليضنّوا به أن يرى النور . فمكف على قراءتها وفك طلاسمها حتى استوى له تاريخ الإسماعيلية وعقائدهم ، وقد نشر من تلك المخطوطات طائفة كبيرة ، ثم هو لا يزال يعمل فى تحقيق ما بقى منها تمهيداً لنشره . وحسبك أن تطلع على قائمة الكتب التى نشرها الدكتور محمد كامل حسين فى الأدب الإسماعيلى والعقائد الإسماعيلية والدعوة والدعاةِ لتقدر الجهد المنيف الذى بذله — فى دأب متصل — لخدمة هذا الجانب الهام من التراث الفكرى والدينى والتاريخى لتلك الفرقة الإسلامية الشهيرة .

على أن الدكتور كامل حسين لم يقنع بالدراسة النظرية لهذا التراث فى مصادره الأولى ، وإنما أضاف إلى ذلك خبرات عملية نتيجة لاتصاله الشخصى ببعض كبار الإسماعيليين ، وفى مقدمتهم زعيمهم « أغا خان » الراحل . وقد زار الدكتور أكثر مراكز الاسماعيلية فى الشام والعراق والهند وغيرها ، ودرس حياتهم عن كثب ، وناقشهم آراءهم ، ووقف منهم على تفسير بعض ما غمض من معتقداتهم .

ومن الحق أن نذكر أن تمشق الدكتور محمد كامل حسين لموضوع الإسماعيلية وطول صحبته له لم يصرفاه عما ينبغى أن يتوافر للعالم من نزاهة الحكم والبعد عن الهوى والتزام القصد فى أحكامه .

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد التمس دائماً وجه الحق في كل ما كتب سواء رضي عنه الإسماعيلية أو سخطوا عليه .

والكتاب الذى نقدمه له اليوم عن « طائفة الإسماعيلية : تاريخها ونظمها وعقائدها » خير مثل لذلك . والكتاب — على صغره — ثمرة لدراسات مستفيضة وخبرات شخصية للمؤلف . ولا شك أن القارئ سيقدر أن وراء كل موضوع من الموضوعات التى ينتظمها هذا الكتاب حشد كبير من الاطلاع والدراسة لا يقوى عليه إلا من ملك ناصية بحثه ، حتى ليصبح — بين يديه — أمراً سهلاً مُيسّراً ، مجلوًّا للناس فى تلك الصورة الرائقة الواضحة .

نرجو الله أن ينفع به . وعلى الله قصد السبيل .

١٢ يناير ١٩٥٩ — أحمد عزت عبد الكريم

مقدمة

قام الاسماعيلية بدور خطير فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى بلدان مختلفة من العالم الإسلامى ولهم أثر فى التاريخ لا نستطيع أن ننكره ، ولا أكاد أعرف فرقة من الفرق الإسلامية كان لها ما للاسماعيلية من تاريخ طويل حافل بالحوادث والتيارات ، فلا غرو أن نسمع باهتمام العلماء بهذه الفرقة منذ ظهورها على مسرح الحياة السياسية . ووضعوا عنها من المؤلفات قديماً وحديثاً ما لم يوضع مثله عن فرقة أخرى ، فالذين خالفوا الاسماعيلية طعنوا رجالاتها وفندوا آراءهم الدينية ، وقام علماء الاسماعيلية بدفع الاتهامات التى انصبت عليهم وردوا على مخالفيهم ، فكان الجدال بين الاسماعيلية وأعدائهم سبباً فى ثروة علمية شغلت الفكر زمناً طويلا ، بل لا تزال الكتب تؤلف عن الاسماعيلية إلى الآن .

وأسس الاسماعيلية أكثر من دولة لهم ، وفى بقاع مختلفة من البلدان الإسلامية . وكانت لهم دولة فى المغرب امتدت إلى صقلية وجنوب إيطاليا ، وكانت لهم دولة فى مصر ، وأخرى فى اليمن ، وأسسوا دولة فى بلاد فارس ، وكانت لهم قلاعهم وحصونهم فى الشام ، ومن الطبيعى أن يكون لهذه الدول أثر فى مجرى الحوادث فى العصور الوسطى ، حتى خشى بأس الاسماعيلية كل الدول

المجاورة لهم بل والبعيدة عنهم ، وكانت بينهم حروب عنيفة قاسية امتدت وتشعبت . كما كان للاسماعيلية مذهب ديني خاص دانوا الله به وعملوا على نشره فى العالم بالدعاية المنظمة تنظيما دقيقاً حتى استجاب لهم جمهور كبير من الناس . وهذا الكتاب محاولة مبسطة للتعريف بتاريخ هذه الفرقة وبأهم الأدوار التى مرت بها الطائفة مع شرح مبسط لنظمها وبعض عقائدها .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى تقريب ذلك كله إلى جمهور المثقفين . والله تعالى ولى التوفيق ؟

الجيزة فى أول يناير سنة ١٩٥٩

محمد كامل حسين

الفصـــل الأول

دور الستر

طائفة الاسماعيلية فرقة من فرق الشيعة ، أخذت أصولها المذهبية عن الأصول الشيعية التي وجدت قبل ظهور الاسماعيلية ، تلك الأصول التي لم تكن في أول أمرها تختلف عما ذهب إليه غيرهم من المسلمين في شيء ، وكان الخلاف ينحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء إنما كان الاختلاف حول الإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الشيعة جعلوا الإمامة حقاً شرعياً للإمام علي بن أبي طالب ولأبنائه من بعده ، وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعي هو بأمر من الله سبحانه وتعالى ونصٍّ منه إلى نبيه الكريم ، فقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم في عودته من حجة الوداع نزل بالجحفة « بين مكة والمدينة » عند غدير يعرف بغدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، وهناك جاءه الوحي بالآية القرآنية الكريمة (يأيها الرسول بلغْ ما أُنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغتَ رسالته ، والله يعصمك من الناس) . ويستمر الشيعة في حديثهم عن ذلك فيقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بأمر ربّه وأمر بالصلاة ، حتى إذا

انتهى منها خطب الناس ، وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب ، فكان مما قاله عليه السلام في خطبته : «ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار» . فعندما سمع الصحابة رضوان الله عليهم قول الرسول الكريم هنأوا عليًا بأنه أصبح مولى جميع المسلمين . وفي مسند أحمد بن حنبل : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أول المهنئين لعلي . فالشيعة على خلاف مذاهبهم وتباين أهوائهم يثبتون هذا الحديث النبوي ، ويعتبرون يوم الغدير عيداً لهم لا يزالون يحتفلون به إلى يومنا هذا . هذا هو الأساس الأول لعقيدة الشيعة عامة في ولاية علي بن أبي طالب ، وبذلك رفضوا الاعتراف بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر وبإمامة عثمان بن عفان ، ومن الطبيعي ألاّ يعترفوا بالأمويين أو العباسيين أو غيرهم من الخلفاء . هذا هو الخلاف الأول الذي قام بين الشيعة وجمهور أهل السنة والجماعة ، وكان هذا الخلاف في أول الأمر لا يبعدهم في قليل أو كثير عن سائر المسلمين . ولكن بمرور الزمن أصبح هذا الخلاف أصلاً من أصول العقيدة الشيعية ، وفرضاً من فرائض الدين عندهم وأساس فلسفتهم المذهبية ، وعنه تفرعت مسائل

أخرى وآراء جديدة ، تجمعت على مدى الأيام وتبلورت وكونت العقيدة الشيعية التي نعرفها الآن .

رأى المتشيعون فى أول الأمر أن أمور دينهم يجب أن تؤخذ عن أعقاب النبي (ص) الذين تسلسلوا من أولاد فاطمة بنت النبي وزوجها على بن أبى طالب ، وأن حفدة النبي أحق الناس بأن يعرفوا حقيقة رسالة جدهم وأن يفهموها حق الفهم وأن يبشروا بها كما بشر بها جدهم محمد (ص) ، فهم وحدهم ورثة علم النبي خصهم النبي بذلك ليكونوا حجة على المسلمين من بعده ، وذلك كله بأمر من الله تعالى ، الذى نص على ولاية على بن أبى طالب يوم غدير خم فى آية النص التي ذكرناها من قبل ، والتي فهمها الشيعة وأولوها تأويلاً يتفق مع مذهبهم وآرائهم فى ولاية على وأبنائه من بعده ، على أن يكون الابن الأكبر من أهل بيت الرسول هو صاحب الحق الشرعى فى أن يكون القائد الروحى للمسلمين ، بل أن يكون فى الوقت نفسه حاكم المسلمين . وبمعنى آخر ، رأوا أن أكبر أفراد الأسرة سناً هو صاحب السلطان الديني والسياسى معاً ، لارتباط الدين والسياسة فى تلك الأيام بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأى حال من الأحوال . فالشيعة على هذا النحو طالبوا بقيام النظام الثيوقراطى فى الإسلام ، هذا النظام الذى كان معروفاً فى العصور القديمة عند كل الدول مثل المصرية والبابلية واليونانية والرومانية

وغيرها من الدول ذات الحضارات القديمة التى كانت قبل الإسلام ، فنى حضارات هذه الدول القديمة كان الشعب ينظر إلى الملوك نظرة دينية بجانب النظرة الدنيوية ، وكانت الحكومات حكومات إلهية ، بمعنى أن الملك كان إلهاً مقدساً ، فله أن يحكم البلاد حكما مطلقاً دون أن يجرؤ أحد أن ينازعه هذا الحكم على أية صورة كانت ، مهما كان هذا الملك ظالماً مستبدا أو شريراً عابثاً أو ماجنا خليعاً ، فالحكم له بأمر الآلهة التى عبدها الشعب ، ومن هذه الآلهة كان ملكهم . هذا النظام الثيوقراطى كان عند الأمم القديمة التى سبقت الإسلام ، ولكن انتقلت هذه الآراء القديمة إلى بعض من دان بالإسلام من الشعوب التى عرفت هذه النظم الثيوقراطية ، وتغلبت هذه الآراء القديمة عندهم على الرغم مما جاء به الإسلام وما ورد فى القرآن الكريم عن النبى (ص) نفسه (وما أنا إلاّ بشر مثلكم) . ولكن تغلغت الآراء القديمة فى نفوسهم ، فكان لها أثر أقوى من تغلغل دين الإسلام الجديد . وإقراراً للحقيقة نذكر أن آراء الشيعة الثيوقراطية فى أول الأمر كانت معتدلة جداً بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر عند الشعوب القديمة ، فإن الشيعة فى أول أمرهم لم يؤلهوا عليًّا ولا أحد أحفاده ، بالرغم مما أسبغوه على الأئمة من مناقب وفضائل تطورت إلى حد بعيد بعد القرن الثالث للهجرة .

كان الدين قوام الحياة فى العالم القديم والوسيط ، فنى القرون

الثلاثة الأولى للهجرة كان شعور السخط عند المسلمين يزداد على الحاكمين لانصراف بعض الحكام عن المثل الدينية الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم وفى سنة الرسول عليه السلام ، وتطلع الناس إلى أن يعود حكم الخلفاء الراشدين ، وها هو مالك ابن أنس وهو من أئمة أهل السنة والجماعة يبدى سخطه وغضبه على حكم العباسيين ، وكان يتمنى لو عادت أيام الخلفاء الراشدين ، أو أيام الأمويين وخاصة أيام عمر بن عبد العزيز . فمالك بن أنس مثل من أمثلة عديدة نستطيع أن نأخذ منها شعور المسلمين ، ولا سيما جماعة العلماء والفقهاء نحو الحاكمين . ومن الطبيعى أن هذا الشعور كان يعبر عن شعور غيرهم من المسلمين ، أما جماعة الشيعة فى هذه العصور فكان شعورهم نحو الحاكمين هو نفس شعور غيرهم من المسلمين ، ولكنهم كانوا يتطلعون إلى أن يعم العدل بين الناس على يد زعيم من أهل بيت رسول الله ، ولذلك كانوا يلتفون حول أكبر فرد سناً من أهل البيت ليأخذوا عنه علوم الدين ، كما كانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذى يستطيع أن يخلصهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد ، ويرجون اليوم الذى يتولى فيه هذا الرجل حقه الشرعى من حكم العالم . وربما دبر هؤلاء الشيعة حركات ثورية للتخلص من الحاكم ليتولى رجل من أهل البيت الحكم ، وكان من الطبيعى أن يوجس الحاكمون فى تلك الأوقات خيفة من أمثال هذه التجمعات حول أهل البيت ، إذ رأوا فيها خطراً

عظيما يهدد سلطانهم . فلا غرابة إذن أن نرى الحاكمين يأخذون كل حركة من هؤلاء بالعنف والشدة ، بل تتبعوا أهل البيت أنفسهم بالتشريد والتعذيب والسجن والقتل ، مما أدى إلى ازدياد سخط العامة من الشيعة وغيرهم ، كلما مرت السنون وأصبح حلم الشيعة فى إقامة حكم عادل على يد أحد أهل البيت يجتذب جمهرة المسلمين المعذبة اجتذاباً شديدا جداً ، كانوا يريدون إماماً عادلاً من أهل البيت يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، ومن هنا نستطيع أن ندرك سبب قيام تلك الحركات الثورية العنيفة التى قام بها الشيعة من حين لآخر منذ ثورة الحسين بن على بن أبى طالب ، كما نستطيع أن ندرك أيضاً سبب انتشار التشيع بين الجماهير الفقيرة المعذبة الكادحة الذين كانوا يأملون فى استقرار نظام تسوده العدالة الاجتماعية برئاسة إمام من أهل البيت .

ولكن واجه المتشيعون عدة مشاكل ، غير ما كانوا يلاقونه من اضطهاد الأمويين والعباسيين ، فقد تكاثر عدد أفراد أهل بيت الرسول بمرور السنين ، وتفرقت الأسرة فى بلاد مختلفة ، الأمر الذى أدى إلى أن أصبح من الصعب معرفة أكبر أفراد الأسرة سناً ، وهو الشخص الذى له الحق الشرعى فى تولى أمر الشيعة حسب عقائدهم الأولى . وكان لزاماً إذن أن تتطور فكرة اختيار أكبر الأفراد سناً إلى اختيار أبرزهم فى الحياة العامة ، ثم تطورت هذه الفكرة مرة أخرى إلى اختيار ألمعهم شأناً من أبناء

الحسين بن علىّ ، ولا سيما بعد أن ظهر فى فرع الحسين بن على أعظم أهل البيت موهبة فى العلم والدين : وهو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، المتوفى حوالى سنة ١٤٧ هـ ، الذى التف حوله عدد كبير من الشيعة ، حتى اعتبر فى نظر الشيعة الإمامية أنه المؤسس الحقيقى للمدرسة الشيعية الدينية وواضع أصول العقيدة الشيعية ، ذلك بالرغم من أن المعروف عن جعفر الصادق تاريخياً أنه لم يناد بنفسه إماماً للشيعة ، ولم يقم بثورة يطالب فيها بالحكم ، ولكنه بفضل شخصيته الفذة ومواهبه المتعددة وشدة ورعه وتدينه استطاع أن يمد جماعة الشيعة الذين التفوا حوله بما كانوا فى مسيس الحاجة إليه من وجود شخص من أهل البيت يجتمعون إليه ويأخذون العلم عنه . ومما لا شك فيه أن أبناء جعفر الصادق وحفدته الذين جاءوا بعده لم يستطيعوا أن يبلغوا ما بلغه جعفر الصادق فى نفوس الشيعة ، ولم يرث أحدهم صفاته العالية ، بل عاشوا على تراثه الروحى الذى تركه فى نفوس الناس ، ولهذا نرى الشيعة الإمامية فى العراق وإيران والشام الآن يطلقون على أنفسهم أصحاب المذهب الجعفرى ، أى أنهم أتباع جعفر الصادق . وجد إذن شخص عظيم من أهل البيت ارتاح له الناس وتجمعوا حوله للأخذ عنه .

ويجب أن نذكر هنا أن عدداً كبيراً من علماء أهل السنة

والجماعة تتلمذوا أيضاً على جعفر الصادق : نذكر منهم على سبيل المثال الإمام مالك بن أنس ، وذلك لما عرف عن الصادق من اعتدال فى الرأى والعقيدة بحيث يقبل آراءه كل مسلم ، السنى منهم والشيعى ، ولكن هذه الآراء التى كان ينادى بها الصادق وكونت مذهبه الدينى دار حولها كتابات كثير من علماء الشيعة فى القرن الرابع للهجرة وما تلاه من قرون ، وتطورت هذه الآراء بمرور الزمن ، ونسبت إلى الصادق تعاليم وآراء لم يقل بها ، كما أدخل بعض الشيعة فى تعاليمه آراء هى من تراث الأمم القديمة التى خضعت للمسلمين أو التى امتزجت بالمسلمين على نحو ما ، فكثرت الآراء واختلفت النزعات وتشعبت الأهواء ، وظهر عند بعض البيئات الشيعية انحراف ومغالاة فى الآراء الدينية كان من نتائجها أن اضطر المتشيعون أنفسهم من المحافظين على المذهب الجعفرى إلى أن يتبرأوا من القائلين بهذه المقالات المتطرفة ومن آرائهم ، كالذى نراه مثلاً عند أصحاب أبى الخطاب الأسدى الذى كان من تلاميذ جعفر الصادق ومن ألصق الناس به ، ولكنه غالى فادعى ألوهية جعفر الصادق نفسه ، مما جعل الصادق يستعيذ بالله من شر فعالته ويتبرأ منه ومن كل من ذهب مذهبه . كثرت إذن الفرق الشيعية وتعددت آراؤهم واختلفت اختلافاً متبايناً بين معتدلة وغالية ، وجذبت الآراء الشيعية عدداً كبيراً من المسلمين ، فأصبح للشيعة كيان خاص عرفوا به ، وهم لا يزالون إلى يومنا

هذا فى عدة بلاد من العالم على نحو ما سنذكره .

ومهما يكن من شىء فقد انقسمت الشيعة الجعفرية بعد وفاة جعفر الصادق حوالى سنة ١٤٧ هـ إلى فرقتين ، وكان انقسامها بسبب الإمامة ، ذلك أن الأكثرية العظمى من أتباع المذهب الجعفرى نادوا بإمامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وسلسلوا الإمامة فى الأكبر سناً من عقبه ، إلى أن أشيع بأن الإمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكرى دخل سرداباً فى مدينة سامرّاء (شمالى بغداد بالعراق) وأنه اختفى فى هذا السرداب خوفاً على نفسه من بطش العباسيين وتنكيلهم بالشيعة عامة وأهل البيت خاصة ، ويقول شيعته إنه لايزال إلى الآن حياً ، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة على أنه « المهدى المنتظر » الذى سيملأ الدنيا عدلاً ويرد الحق إلى أهله فى الأيام القلائل التى تسبق يوم القيامة ، وأكثر الشيعة فى إيران والعراق وسورية ولبنان الآن يدينون بإمامة الأئمة الاثنى عشر الذين دخل آخرهم السرداب حوالى سنة ٢٦٠ هـ وسميت هذه الفرقة بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم أو بالإمامية الاثنى عشرية نسبة إلى عدد الأئمة .

أما الفرقة الثانية التى تفرعت عن المذهب الجعفرى فهى فرقة الاسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق فنسبت إليه الفرقة . ومن الطريف أن مؤرخى الاسماعيلية وعلماءهم يروون قصة عن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق إلى هاتين الشعبتين ،

فقال بعضهم إن جعفر الصادق نص على أن يتولى إسماعيل الإمامة من بعده ولكن إسماعيل توفى فى حياة أبيه ، وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، لأن الإمامة لاتكون إلاّ فى الأعقاب ، ولا تنتقل من أخ إلى أخيه إلاّ فى حالة الحسن والحسين ابنى علىّ بن أبى طالب فقط ، أما الأئمة بعد الحسن والحسين فلا بد أن تنتقل من أب إلى ابن ، وأوّلوا الآية القرآنية الكريمة (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) بأن معنى الكلمة هى الإمامة ، وأنها لا بد أن تكون فى الأعقاب دون غيرهم ، وبما أن إسماعيل بن جعفر الصادق كان صاحب الحق الشرعى فى الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلك ، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة فى ابنه محمد بن إسماعيل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محمد بن إسماعيل أكبر سنا من عمه موسى الكاظم ، فبناء على التقليد الشيعى القديم الذى يوجب تسلسل الإمامة فى أكبر أهل البيت سنا كان محمد بن إسماعيل إذن أحق من عمه موسى الكاظم بالإمامة . على أن أكثر مؤرخى الاسماعيلية يقولون إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه إنما كانت قصة أراد بها جعفر الصادق التمويه والتعمية على الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور الذى كان يطارد أئمة الشيعة ، نخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل فادعى موته ، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفاته ، وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسى الذى أظهر سروراً

وارتياحاً لوفاة إسماعيل الذى كان إليه أمر إمامه الشيعية . ثم شوهد إسماعيل بعد ذلك فى البصرة وفى غيرها من بلاد فارس . وعلى ذلك فالإمامة لم تسقط عن إسماعيل بالموت قبل وفاة أبيه لأنه مات بعد أبيه . ولعلّى لا أغلو إذا قلت إن هذه القصة — قصة التمويه بوفاه إسماعيل — هى قصة خيالية وضعها بعض أصحاب المناقب من مؤرخى وكتاب الإسماعيلية الذين يكثرون من مثل هذه القصص فى كتاباتهم ليضفوا على الأئمة الاسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرّها عقل .

على أن مؤرخى الفرقة الشيعية الاثنى عشرية وبعض مؤرخى أهل السنة والجماعة يذهبون فى إسماعيل هذا مذهباً مختلفاً كل الاختلاف عما قاله الاسماعيلية . فقد ذهبوا إلى أن إسماعيل بن جعفر الصادق لم يكن بالرجل الذى يصلح للإمامة ، فقد كان مدمنا على شرب الخمر ولوعاً بالنساء وأنه كان من أصدقاء أبى الخطاب الأسدى الفاسق الملحد الذى ادعى ألوهية جعفر الصادق وأنه (أى أبا الخطاب) كان رسوله ، مما جعل جعفر الصادق يتبرأ منه ولا يرضى عن الصلة التى كانت بينه وبين إسماعيل ، وأن جعفرا أظهر فرحه لموت ابنه إسماعيل لما كان معروفاً عنه من فسق . هكذا اضطربت الروايات واختلفت الأقاويل فى أمر إسماعيل بن جعفر الصادق بحيث أصبحنا لا ندرى حقيقة أمره ، ولا سيما أنه الرجل الذى تسب إليه فرقة الإسماعيلية التى قامت بدور هام فى تاريخ

العالم الإسلامى منذ ظهورها . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فى إسماعيل فالتاريخ يجهل جهلاً تاماً كيف بدأت الدعوة لإمامة إسماعيل فنحن لا نستطيع أن نعرف أول من دعا بإمامته ، ولا نستطيع أن نحدد تاريخ ظهور دعوته لأول مرة ، وإن كنا نرجح أن بعض أتباع أبى الخطاب الأسدى هم الذين نادوا به ، وأنهم أغروا ابنه محمداً بالدعوة لنفسه بعد أبيه . وثابت من التاريخ أن محمداً بن إسماعيل بن جعفر الصادق اضطر إلى أن يترك مسقط رأسه فى المدينة المنورة وإلى أن يهاجر إلى خوزستان (جنوب غربى إيران) ثم تركها إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) ، ولم يسمع عنه شىء بعد ذلك . ومن يدرى ! لعل هجرته هذه كانت بسبب التفاف الشيعة حول عمه موسى الكاظم من دونه ، فشاء أن يجد لنفسه أتباعاً وأن يقيم لنفسه دعوة فى هذه الأقاليم التى هاجر إليها ، ولعل الذين أغروه بالدعوة لنفسه هم الذين زينوا له فكرة الهجرة عساه ينجح فى تلك البلاد البعيدة عن أعين الخلفاء العباسيين ، وقد تكون هناك أسباب أخرى لا نعرفها أوحت إليه بالهجرة . على أننا لم يصلنا شىء عنه ولا عن دعوته ، بل لم يعرف التاريخ شيئاً اسمه فرقة الاسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث للهجرة ، ففى أواخر هذا القرن نسمع عن حركة القرامطة فى البحرين وبلاد الشام ، ونسمع ما يرويه مؤرخو الاسماعيلية من أن أسرة محمد بن إسماعيل وفدت على بلاد الشام واستقرت

فى مدينة « سلمية » (بالقرب من حمص بسورية) فى هيئة التجار ، وأنهم كانوا يخفون شخصيتهم خوفاً على أنفسهم بينما كانوا يرسلون دعاتهم إلى جميع البلاد الإسلامية للتبشير بقرب ظهور المهدى المنتظر من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق ، وبمعنى آخر ظهور الإمام صاحب الحق الشرعى من نسل الرسول (ص) ليتولى قيادة المسلمين . فظهور القرامطة فى البحرين والشام كان إيذاناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية . بعد أن ظلت الاسماعيلية مستترة لا يعرف أحد شيئاً عنها زهاء قرن من الزمان . ولكن مؤرخى الاسماعيلية يحلو لهم دائماً أن يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أئمتهم ، وهى الفترة التى تعرف عندهم (بدور الستر) أى الفترة التى اضطر فيها الأئمة إلى الاستتار خوفاً من بطش أعدائهم العباسيين ، وكل مؤرخ من مؤرخى الاسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختلفاً أشد الاختلاف ، فهم مختلفون فى عدد أئمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً فى أسماء هؤلاء الأئمة ، جعل بعضهم الأئمة ثلاثة ، وقال بعضهم بل خمسة ، وقال بعضهم بل سبعة ويكفى أن أنقل هنا ما كتبه أشهر مؤرخى الاسماعيلية وهو الداعى إدريس فى كتابه عيون الأخبار عن هجرة محمد بن إسماعيل إلى بلاد فارس وانتقال أسرته إلى بلاد الشام فقد قال بعد أن اشتد الضغط على الإمام السابع محمد بن إسماعيل

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه علي ، وظل فيها مدة من الزمن متستراً عن العيون بعيداً عن الأرصاد ، حتى ولد له فيها ولد أسماه عبدالله ، ومن الكوفة سار إلى الري ، واستتر عند أحد دعاته السريين المسمى إسحق بن عباس . وكان يشغل منصب حاكم الري من قبل الرشيد العباسي ، وبعد مدة من الزمن قال له إسحق : يا مولاي قد علمت اليوم أنهم بثوا العيون في كل مكان وأني أصبحت أخشى عليك منهم ، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل وتعتصم بقلعة نهاوند عند خادمك الداعي منصور بن حوشب فإن ذلك أنسب ، وعلى كل حال الأمر لك يا مولاي . فعمل بإشارته ، وبعد ذهابه قبض العباسيون على إسحق وعذبوه عذاباً شديداً ، وقيل إنه مات تحت السياط دون أن يدل على مكان الإمام ، ولما لم يعرف هرون الرشيد عن أمر الإمام شيئاً ، أرسل قائده محمداً الخراساني ومعه جيش كبير من الكرد والأتراك للتفتيش عنه ثم القبض عليه ، فلما وصل إلى نهاوند دخل مسجدها ، فرأى الإمام محمداً بن إسماعيل مسنداً ظهره إلى المحراب وبين يديه رجلان يعلمهما أصول الدين ، فلم يتمالك القائد نفسه حينما رأى عظمته وجلال هيبته من أن ينحني أمامه ويقبل يديه ، ثم أشار إليه بضرورة سفره من نهاوند لأن الرشيد يريد أن يقبض عليه إذا ما ظل فيها ، فخرج منها تحت جنح الظلام مستتراً إلى بلدة سابور ،

ومنها إلى فرغانة وبعد ذلك إلى عسكر مكرم ، وهناك على مشهد من دعاته نص على إمامة ولده عبد الله ولقبه بأحمد الوفى ، وبعد ذلك بزمن قليل توفى إلى رحمة الله سنة ١٦٩ هـ ، فاستلم الإمامة من بعده ولده عبدالله وازداد فى التستر والخفاء ، وخرج سراً من عسكر مكرم إلى زمهر ومنها إلى الديلم ، وهناك تزوج بامرأة من الأسرة العلوية يسمى والدها الأمير على الهمذانى ، فرزق منها ولداً أسماه أحمد ولقبه محمد التقى . . . . . ثم إن دعوتهم انتشرت انتشاراً واسعاً واستجاب لهم خلق كثير العدد فى بلاد العرب وفارس ، ولكن الضغط اشتد عليه من قبل المأمون العباسى ، فاضطر إلى مغادرة الديلم قاصداً مدينة معرة النعمان قرب حلب ، فأقام فيها مدة ، ثم أنه غادرها بعد ذلك إلى مدينة سلمية قرب حمص بعد أن ترك أخاه حسيناً يقوم بالنيابة عنه ، وأخذ العهد على المستجيبين لدعوته ، وفى سلمية نص على إمامة ولده أحمد بن عبدالله على مشهد من رجال دعوته ، وانتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف بسورية ومات فيها ، ودفن بأعلى قمة جبلها بمكان سمى المشهد ، وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ ، وبعد وفاته استلم شئون الإمامة ولده المسمى أحمد بن عبد الله وهو الملقب بمحمد التقى . وهذا الإمام كان كثير التنقل فى البلدان يحب التبشير بالدعوة بنفسه ، فوضع الوكلاء والدعاة بمركز دعوته بسلمية ، وسار متنقلا فى بلدان الشام ، وأخيراً انتقل إلى الرى وإلى همذان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء

إلى إستنبول (هكذا ! !) حيث توفى فيها سنة ٢٢٩ هـ ، وبعد ذلك استلم شئون الدعوة الإمامية ولده وكان يقيم فى سلمية وهو المسمى الحسين بن أحمد بن عبد الله الملقب بعبد الله الرضى ، وقد توفى فى سلمية سنة ٢٦٧ هـ . ودفن فى المسجد الكبير الذى كان يصلى فيه .

هذا ما ذكره أكبر مؤرخ عند الاسماعيلية وهو الداعى إدريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ فى كتابه عيون الأخبار الذى يعد أعظم كتاب فى تاريخ الاسماعيلية ، ولكن الظاهر من هذا النص أن المؤرخ خلط كثيراً من أخبار ذكرت فى كتب إسماعيلية أخرى ، بأخبار أتى بها من عنده لم تذكر فى الكتب الأخرى ، وإن الأسماء التى ذكرها تختلف عن أسماء الأئمه الذين وردوا فى كتب الاسماعيلية ، كما أننا نلاحظ عدة أخطاء تاريخية وقع فيها هذا المؤرخ الكبير ، فقد ذكر مثلا الداعى المنصور بن حوشب على أنه كان صاحب قلعة نهاوند حوالى سنة ١٦٩ هـ ، مع أن ابن حوشب كان من رجال القرن الثالث للهجرة وليس من رجال القرن الثانى للهجرة ، ومسألة دخول الإمام إستنبول ووفاته بها تدعو إلى الدهشة ، لأن استنبول فى هذه الأيام لم تكن من البلاد الإسلامية ؛ إنما كانت عاصمة الأمبراطورية البيزنطية التى كانت فى حروب مستمرة مع المسلمين ! إلى غير ذلك من أخطاء وقع فيها المؤرخ شأنه فى ذلك شأن كل

مؤرخى الاسماعيلية الذين تركوا لنا كتباً يصعب جداً الاعتماد عليها لكثرة ما فيها من اختلافات وأخطاء تاريخية . ومن المؤسف أن هذا الاختلاف لم يكن بين مؤرخيهم فحسب ، بل كان أيضاً بين كبار علماء الدعوة الاسماعلية على نحو ما سنذكره فيما بعد . وما دام مؤرخو الاسماعيلية أنفسهم لم يستطيعوا أن يعطونا صورة صحيحة عن أئمتهم فى الفترة بين سنة ١٤٧ هـ ، وهى سنة وفاة جعفر الصادق وسنة ٢٩٦ هـ ، وهى سنة ظهور عبيد الله المهدى بالمغرب لشدة ستر الأئمة ؛ فمن الطبيعى أن لا نجد مؤرخاً من مؤرخى العرب اهتم بهم فى هذه الفترة . ومعنى هذا كله أننا لا نستطيع أن ندلى برأى صحيح عن تاريخ الاسماعيلية فى دور الستر ، فهى فترة غامضة أشد الغموض حتى إن بعض مؤرخى وكتاب الاسماعيلية تحدثوا عن هذه الفترة رمزاً دون تصريح ، مما يجعل موضوع الحديث عن دور الستر شاقاً عسيراً على كل باحث فى تاريخ الاسماعيلية ، فإن الشيعة عامة والاسماعيلية بوجه خاص اتخذوا التقية مذهباً من مذاهبهم ، ويروون عن الإمام جعفر الصادق أنه قال : التقية دينى ودين آبائى ، ومن لا تقية له فلا دين له . فكانت هذه التقية سبباً فى غموض تاريخهم واختلاف المؤرخين واضطرابهم فيما كتبوا .

ولعل هذه التقية التى سببت هذا الغموض فى دور الستر كانت سبباً فى هذه الحملة الشديدة التى شنها العباسيون وعلماء أهل السنة

والجماعة وعلماء الشيعة الاثنى عشرية حول نسب عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الاسماعيلية التى عرفت فى التاريخ باسم الدولة الفاطمية ، فبالرغم من كثرة ما كتب فى عصرنا الحديث حول نسب الفاطميين ، فإننا نأسف لاضطرارنا إلى القول بأن كل ما كتب لا يوثق به وثوقا علمياً صحيحاً وستظل هذه القضية التاريخية « نسب الفاطميين » حديثاً يكتب ويعاد دون الوصول إلى الحقيقة ، وذلك كله بسبب هذا الستر الشديد الذى فرضه الأئمة والدعاة حول أنفسهم عملا بمبدأ « التقية » وخوفاً من بطش أعدائهم ، وسيظل الموضوع غامضاً إلى أن تكتشف نصوص جديدة يوثق بها تاريخيا . وليس أدل من اضطراب الحديث عن نسب الفاطميين عند المتقدمين أنفسهم من هذا النص الطريف الذى عثر عليه الصديق الزميل الأستاذ الدكتور حسين الهمدانى فى كتاب « الفرائض وحدود الدين » لجعفر بن منصور ابن حوشب ، وملخص هذا النص أن جعفر الصادق كان له أربعة أبناء هم إسماعيل وموسى ومحمد وعبد الله ، وأن الإمامة كانت لعبد الله الذى اتخذ لنفسه اسم إسماعيل تقية ، وسلسل الإمامة فى عبد الله بن جعفر (الذى تسمى بإسماعيل) ثم بعده محمد بن عبد الله ، ثم عبد الله بن محمد ، ثم أحمد بن عبدالله ، ثم محمد ابن أحمد ، ثم أوصى محمد بن أحمد إلى ابن أخيه فتسمى سعيد بن الحسين (أو سعيد الخير) . وهكذا نرى هذه الخلافات الشديدة

التى لا نستطيع أن نستخرج منها الحقيقة .

وهناك مسألة أخرى تجعلنا فى حيرة من أمر الإسماعيلية فى هذه الفترة الغامضة من تاريخهم (أى فى دور الستر : فنحن نعرف أن الإمام جعفر الصادق توفى حوالى سنة ١٤٧ ﻫ . وأن شيعته انقسموا بعده إلى موسوية وإسماعيلية ، ومع ذلك فلم نسمع شيئاً عن هذه الفرقة الأخيرة – أى الاسماعيلية – إلا بعد دخول آخر إمام من أئمة الفرقة الموسوية وهو الإمام محمد بن الحسن العسكرى السرداب حوالى سنة ٢٧٠ ﻫ ، أى بعد وفاة جعفر الصادق بأكثر من قرن كامل ، فأين كانت طائفة الاسماعيلية طوال هذه المدة ؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه لأننا لم نجد ما نستطيع الاعتماد عليه أو الوثوق به فى الكتب التاريخية أو كتب الدعوة الاسماعيلية نفسها ، ويخيل الى أن بعض الشيعة من الإثنى عشرية صدموا لاختفاء الإمام الثانى عشر فى السرداب ولم يكن له أولاد . فتطلعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصادق المتسلسل من محمد بن إسماعيل فقاموا بالاعتراف بإمامتهم والدعوة لهم ، بعد أن ظل أبناء محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط للدعوة لأنفسهم بالإمامة طوال هذه المدة . هذا ما نرجحه إلى أن نطمئن إلى نصوص نثق بها تفسر لنا هذا الغموض الشديد الذى يحيط بالاسماعيلية قبل سنة ٢٦٠ ﻫ ، ولا سيما أن كتب التاريخ بين أيدينا لا تشير من قريب ولا من

بعيد إلى أى نشاط من فرقة الاسماعيلية قبل هذه السنة (أى سنة ٢٦٠ هـ).

ولعل أول حركة إسماعيلية ناجحة هى تلك الحركة التى قامت ببلاد اليمن : فإن أحد الدعاة المعروف بالحسين بن حوشب، الملقب بمنصور اليمن ، استطاع حوالى ٢٦٦ هـ أن يجمع حوله عدداً كبيراً من قبائل اليمن ، وأظهر بينهم الدعوة للإمام الإسماعيلى المنتظر ، وأن يفتح باسمه عدداً من القلاع والحصون باليمن ، فاستطاع بذلك أن يؤسس باسم الإمام الإسماعيلى (المنتظر) أول دولة إسماعيلية فى التاريخ . أما الداعى ابن حوشب الذى أسس هذه الدولة الاسماعيلية فكان أول أمره من الشيعة الاثنى عشرية ، ويقال إنه قابل فى الكوفة أحد الأئمة المستورين ، واستطاع هذا الإمام بعد عدة مقابلات مع ابن حوشب أن يأخذ العهد عليه ، ثم طلب منه أن يرحل للدعوة له فى اليمن على أن لا يصرح باسمه ، ويكتفى بذكر مرتبته وهى الإمامة ، وأن يأخذ العهد على كل مستجيب له باسم (الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق) أو باسم (المهدى المنتظر) فنشط ابن حوشب مع زميل له هو على ابن الفضل فى هذه الدعوة باليمن ، حتى نجحت هذه الحركة ولذلك لقب بمنصور اليمن . ويظهر أن علياً بن الفضل نافق صاحبه مما أدى إلى أن يحاربه ابن حوشب ، ثم امتد نشاط ابن حوشب فى الدعوة إلى خارج بلاد اليمن ، فكان يرسل الدعاة من قبله فى

مختلف البلاد ، فكان من الدعاة الذين بعث بهم ابن حوشب إلى بلاد المغرب الداعى الحلوانى والداعى السفيانى ، غير أن هذين الداعيين توفيا بعد قليل ، فأرسل الداعى أبا عبد الله الشيعى ليتمم مابدأه الحلوانى والسفيانى فى شمال أفريقية من بث الدعوة بين رجال القبائل المغربية باسم المهدى المنتظر ، واستطاع أبو عبد الله الشيعى أن يكتسب تأييد قبيلة كتامة ، إذا بايعه شيوخها على الدفاع عنه وعن إمامه ، وأن يأتمروا بأمره فى دينهم ودنياهم ، كل ذلك والإمام فى ستره وتقيته لم يعرفه إلا من كان شديد القرب منه من كبار رجال الدعوة ، ولم يكن يعرف أحد حقيقة اسمه .

وهكذا نجحت أول[١] محاولة لتأسيس دولة إسماعيلية ، وانتشر الدعاة فى الأقاليم المختلفة .

وحوالى هذه السنوات التى فيها نجح الدعاة فى تأسيس دولة باليمن ، قامت حركة إسماعيلية فى البحرين عرفت فى التاريخ بحركة القرامطة ، وامتد نشاط هذه الحركة إلى بادية الشام ، وحركة القرامطة الثورية هذه شغلت الخلافة العباسية عدة سنوات ، وهزم القرامطة جيوش العباسيين فى عدة مواقع ، ودخل قرامطة البحرين مكة أثناء موسم الحج وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه معهم إلى عاصمتهم « هجر » ، غير أن القرامطة بعد أن نجحت ثورتهم على العباسيين ، تألبوا على الإمام الاسماعيلى

(١) قلت إنها نجحت قبل ذلك فى اليمن .

فى سلمية ، فخلعوا طاعته وجعلوا الدعوة لزعمائهم دون أئمة الاسماعيلية ، بل شاءوا القضاء على أئمة الاسماعيلية فهجموا على سلمية ، واقتحموا دور الأئمة وسلبوا كثيراً من أموالهم وقتلوا بعض أفراد الأسرة ، وكان الإمام الإسماعيلى إذ ذاك هو عبيد الله المهدى الذى جاءت إليه الأنباء بنوايا القرامطة فهرب مع بعض أفراد أسرته من سلمية إلى الرملة ، وعلم القرامطة بفراره فتبعوه إلى الرملة يريدون قتله ومن معه وسلب أمواله ومتاعه ، فاضطر المهدى إلى الفرار مرة أخرى إلى الفسطاط بمصر ، حيث أقام عدة أسابيع رحل بعدها إلى شمال أفريقية ، وهناك أظهر نفسه وخرج من ستره وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانتا فى ستر وخفاء ، ويظهر أن حركة القرامطة ضده نبهت العباسيين إليه ، فقد جهد العباسيون لمعرفة هذا الرجل الذى كان يدعو له القرامطة والذى دعا له ابن حوشب باليمن والحلوانى والسفيانى بالمغرب ، ولكن الستر الذى كان يضرب به المهدى ومن سبقه من الأئمة حول أنفسهم جعل من الصعب على العباسيين أن يعرفوه ، فلولا حركة القرامطة فى الشام ضد المهدى لما عرف العباسيون عنه شيئاً ، ولهذا طارده العباسيون عند فراره من سورية ، وأرسلوا إلى الولاة بصفته حتى يقبضوا عليه ، وكاد يقبض عليه فى مصر لولا أن حذره بعض الدعاة ، فتركها ورجال الدولة العباسية يجدون فى طلبه والبحث عنه ، إلى أن بلغ المهدى مدينة سجلماسة بالمغرب فقبض عليه

بنو الأغلب أصحاب القيروان عاصمة إفريقية (تونس) وسجن المهدى ومن كان معه من أفراد أسرته ، ووصل نبأ سجنه إلى أبى عبدالله الشيعى داعيته فى المغرب والذى نجح فى دعوة قبيلة كتامة إليه ، فقام أبو عبد الله الشيعى بجمع من قبيلة كتامة لإنقاذ المهدى ، واستطاعت جموعه أن تهزم جيوش بنى الأغلب ، وأن يخرج المهدى ومن كان معه من السجن ، وأركب الإمام دابة قادها وهو ينادى فى جموع كتامة : « هذا إمامكم ، هذا إمام الحق ، هذا هو المهدى » .

وبذلك دخل تاريخ الاسماعيلية فى دور جديد ، عرفه مؤرخوهم وعلماؤهم بأنه « دور الظهور » أى أن أئمة الاسماعيلية أظهروا أنفسهم بعد أن كانوا مستترين ، وجاهروا بدعوتهم وبآرائهم المذهبية بعد أن كانوا يدعون بها فى الخفاء ، وكان الإمام فى دور الستر يخفى شخصيته إلا عن كبار دعاته ، بل إمعانا فى الخفاء كان يسمى الدعاة باسمه ، ويلقبهم بلقبه حتى لا يعرف أحد من هو صاحب هذا الاسم أو ذلك اللقب ، وكان يعمل فى التجارة فى مدينة سلمية ولا يبرحها ، بينما كان دعاته منبثين بين الناس يبشرون بقرب ظهور المهدى صاحب الحق الشرعى فى الإمامة دون أن يشيروا إلى اسمه أو إلى مكان إقامته . ويقال إن هذا التستر هو السبب الأول فى خروج القرامطة عن طاعته ، فإنهم استطاعوا أن يعرفوا اسم الإمام وقابلهم الرجل صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم ، ولما عادوا

إليه مرة أخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل نفس الاسم وأشار إليه من حوله بأنه هو الإمام ، فشك زعماء القرامطة فى الإمام وفى الدعوة نفسها ، وحاربوا الإمام ودعوا إلى أنفسهم . وهذا ما حدث أيضاً للداعى أبى عبد الله الشيعى الذى مكن للاسماعيلية بين قبيلة كتامة ، فإنه قبل سفره إلى بلاد المغرب زار الإمام بسلمية ، فقابله شخص على أنه الإمام ، ولكن بعد ظهور المهدى بالمغرب رأى أبو عبد الله الشيعى أن المهدى ليس هو الإمام الذى قابله بسلمية ، وتطرق الشك فى نفسه إلى درجة أن أفضى بذلك إلى أخيه أبى العباس وبعض رؤساء كتامة ، وكادت تحدث ثورة لو لم يبادر المهدى بقتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس وأن يخمد الثورة فى سرعة عجيبة على نحو ما سنذكره فيما بعد . وهذا الستر نفسه هو السبب الأول فى شك كثير من المؤرخين فى نسب أئمة الدولة الاسماعيلية الكبرى (الدولة الفاطمية) وفى شخصيتهم ، وكان سكوت مؤرخى وكتاب الاسماعيلية فى دور الظهور الأول عن ذكر أئمة دور الستر من العوامل التى أعطت أعداءهم سلاحا ماضياً يشهرونه ضدهم وهو الطعن فى نسبهم ، والقول بأنهم أدعياء النسب ، حتى قيل إن هذا الإمام الإسماعيلى الذى ظهر ببلاد المغرب (عبيد الله المهدى) هو ابن رجل يهودى كان حداداً بسلمية ، وترملت أمه ، فتزوجها أحد الأشراف العلويين وربى هذا الغلام ، فلما كبر ادعى لنفسه نسباً علوياً ، ودعا الناس إليه . وقيل

كذلك إن عبيدالله المهدى من نسل عبدالله القداح الذى كان مولى جعفر الصادق، وكان يقوم عنده على حفظ أوانى المنزل، وقد سأل بعض الدعاة المعز لدين الله عن نسبته إلى القداح فقال: نعم هو قادح زناد الفكر! ولم يضف المعز على ذلك شيئاً، كثيراً ما تهكم المصريون بالفاطميين ونسب أئمتهم، فمن ذلك أن الإمام الإسماعيلى العزيز بن المعز لدين الله صعد المنبر فى أول ولايته على مصر، فوجد رقعة كتب عليها:

إنا سمعنا نسباً منكرا يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقاً فاذكر أباً بعد الأب الرابع
وإن تـرد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنســاب بنى هاشم يقصر عنهـا طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم ينبس ببنت شفه. ولا ننسى أيضاً ما يرويه المصريون عن « سيف المعز وذهبه » كلما تحدثوا عن نسب الأئمة الاسماعيلية، إذ ذهب المصريون ألى أن المعز لدين الله عندما انتقل إلى عاصمته القاهرة لأول مرة، دخل عليه أشراف أهل مصر ووجهاؤها وعلماؤها، وسألوه عن نسبه وحسبه، فجرد سيفه وقال: هذا نسبي، ثم نثر عليهم قطع الذهب وقال: هذا حسبى. فتهكم المصريين وسخريتهم بالأئمة على هذا النحو دليل على شك المصريين فى نسبهم، والمعروف عن المصريين قوة الوعى ودقة

الحس والذكاء الذى يستطيع المصرى به أن يدرك الأمور فى سرعة وأن يعبر عما لا يروقه بالفكاهة تاو الفكاهة ، وسنرى كيف قاسى الفاطميون من نكات المصريين اللاذعة العميقة المعنى . إذن كان الستر من أكبر العوامل فى شك الناس فى نسب الاسماعيلية ، ومع ذلك كله لم يذكر عالم من علماء الاسماعيلية فى هذه السنوات الأولى لظهور أئمتهم شيئاً عن نسبهم أو عن أئمتهم فى دور الستر واكتفى الجميع بالقول بنسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فى الوقت الذى أخذ فيه أعداؤهم يرمونهم بكل موبقة ، وإذا تحدث المؤرخون عن أسماء أئمتهم فى دور الستر اختلفت رواياتهم واضطربت أقوالهم ، وذهب كل مؤرخ مذهباً يختلف عن الآخرين ، على أن اكثر المؤرخين يذكرون تسلسل الأئمة على هذا النحو : الحسن بن على بن أبى طالب ، الحسين ابن على بن أبى طالب ، على زين العابدين بن الحسين ، محمد الباقر ابن على زين العابدين ، جعفر الصادق بن محمد الباقر ، إسماعيل ابن جعفر الصادق ، محمد بن إسماعيل ، عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، أحمد بن عبد الله ، الحسين بن أحمد وهو آخر أئمة دور الستر . وقد ذكرنا أن الخلاف شديد حول هذه الأسماء ، ولكن هذه هى أسماء الأئمة فى أشهر الأقوال .

الفصل الثانى

دور الظهور

يقول مؤرخو الاسماعيلية إن الإمام عبيد الله المهدى عند ما جاءته الأنباء بمؤامرة القرامطة ضده ، وعزمهم على قتله هو وأفراد أسرته وسلب كل أموالهم ، فكر طويلا قبل هروبه من سلمية إلى أين يقصد ، لقد استقر رأيه على الفرار من القرامطة لأنه لا يستطيع أن يقاوم جموعهم ، فلم يكن عنده جيش يلاقى به القرامطة ، فكل الذين كانوا حوله هم عدة أفراد من الدعاة الذين كانوا يأخذون عنه علوم أهل البيت ونظام نشر الدعوة ، فلم يكونوا من رجال الحرب ، وكان معه أهل بيته وهؤلاء كانوا تجاراً ولم يشتركوا فى حرب مع أعدائهم بل عاشوا فى سلام ودعة طوال حياتهم ، لهذا كله لم يكن أمام عبيد الله المهدى إلا أن ينجو هو وأفراد أسرته بحشاشة نفوسهم قبل أن يباغتهم القرامطة الذين دوّخوا جيوش العباسيين وتغلبوا عليهم فى عدة مواقع ، ولكن إلى أين يذهب المهدى ؟ استشار فى ذلك بعض المقربين إليه من الدعاة والأقارب ، كان أمامه أن يهرب إلى اليمن حيث استطاع داعيته ابن حوشب أن ينجح نجاحاً ملحوظاً فى نشر الدعوة الاسماعلية وفى امتلاك

بعض القلائع والحصون على نحو ما ذكرناه من قبل ، وكان أمامه أن يرحل إلى بلاد المغرب حيث استطاع داعيته أبو عبد الله الشيعى أن ينجح فى نشر الدعوة فى قبيلة كتامة ، وأن يأخذ على شيوخ القبيلة العهود والمواثيق بنصرة الإمام ، كانت اليمن والمغرب المنطقتين اللتين انتشر فيهما المذهب الاسماعيلى مما يحقق للإمام النفوذ والسلطان ، فكان على المهدى أن يختار لهجرته أحد البلدين ، وكان المهدى ذكيا موهوباً كما كان سياسيا قديراً شأنه فى ذلك شأن كل عظماء التاريخ الذين تمكنوا من تأسيس الدول ، أدرك بثاقب رأيه أن اليمن بعيد عن قلب العالم الإسلامى ، فمن الصعب أن تصلح اليمن مركزا لنشر الدعوة الاسماعيلية فى جميع البلاد حسب ما كان يطمع فيه المهدى ويعمل له . كانت كل الظروف ممهدة للمهدى فى اليمن أكثر مما كانت عليه بلاد المغرب ، وكان المهدى يعلم أن هجرته إلى المغرب محفوفة بأخطار جسيمة ، ولكنه كان يتطلع إلى المستقبل أكثر مما يتطلع إلى حاضره ، يحدوه الأمل فى النجاح أكثر من تفكيره فى الفشل ، فدفعه الأمل فى النجاح فى المستقبل إلى أن يختار المغرب داراً لهجرته من دون اليمن ، فسار إليها ، وقدر له النجاح فاستطاع أن يؤسس سنة ٢٩٧هـ تلك الدولة العتيدة التى عرفت فى التاريخ باسم «الدولة الفاطمية» . وبالرغم من مظاهر نجاحه فى تأسيس هذه الدولة فقد تعرضت مواهبه الفذة وقدرته إلى امتحانات عسيرة جداً فى سياسته ،

ولا سيما فى سياسته نحو قبائل البربر ، كانت أكثر قبائل البربر يتعصبون لمذهب مالك بن أنس السنى ، وكان بعضهم يدين بمذهب الخوارج ، بينما كانت دعوته المذهبية تختلف عن المذهبين اللذين انتشرا بين قبائل شمال أفريقية فكان من الطبيعى أن يتصارع المذهب الإسماعيلى الجديد مع المذهبين الآخرين ، أضف إلى ذلك كله أن قبائل البربر مثل جميع القبائل البدوية فى كل مكان فى العالم ، كانت لهم عقليتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة ، فربما قبلوا اليوم رأيا من الآراء وأيدوه بكل ما فى وسعهم ، فإذا جاء الغد ، تركوا هذا الرأى لسبب تافه أو لغير سبب على الإطلاق ، فسياسة أمثال هذه القبائل البدوية من أصعب وأحق أنواع الحكم ولا سيما إذا كان الحاكم يريد فرض مذهب دينى يخالف ما عليه القبائل وما توارثوه من تقاليد دينية منذ قرون ، وهذه الصعوبات وجدها المهدى فى تأسيسه للدولة الفاطمية الناشئة ، فبعد أن قامت كتامة وبعض قبائل أخرى بمساعدته وبهرتهم هذه الانتصارات الفجائية السريعة التى قوض بها دولة الأغالبة فى أفريقية ، نرى عددا من الثورات قامت بها القبائل البربرية ضده ، حتى إنه اضطر إلى أن يقتل داعيته أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس الشيعى لأنهما شكا فى شخصيته وعملا على الخروج عن طاعته وحاولا إثارة الفتنة فى قبيلة كتامة نفسها التى ناصرت المهدى ، فثارت كتامة ضد المهدى ، ولكنه تمكن من إخماد

هذه الثورة وغيرها من الثورات التي قامت ضده ، وعادت كتامة إلى طاعته صاغرة بحد السيف ، ثم ثارت مدينة أطرابلس سنة ٣٠٠ ﻫ ، فأسرع إلى قمعها بقتل زعماء الثوار ، وفى سنة ٣١٥ ﻫ ثار محمد بن خزر الزناتى ولكنه هزم ، ولعل أعنف هذه الثورات وأشدها خطراً تلك الثورة التى قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الذى كاد يقضى على هذه الدولة الناشئة وأن يهزم جيوشها المرة بعد المرة ، كان أبو يزيد على مذهب الخوارج ألد أعداء الشيعة فلما صمم على الثورة لم يقم بها إلا بعد دراسة طويلة ، فأخذ يدعو لثورته سراً زهاء ثلاثة عشر سنة حتى تجمع حوله عدد كبير من مؤيديه ، وانتهز فرصة وفاة المهدى فجاهر بالعصيان ، ونادى بالجهاد ، وظل يحارب الدولة ويهزم جيوشها حتى استطاع أن يحاصر عاصمة الفاطميين (المهدية) التى بناها المهدى بإفريقية (تونس) ، ولما فشل أبو يزيد فى الاستيلاء عليها ، بدأ نجمه فى الأفول ، إلى أن استطاع الخليفة الثالث من الخلفاء الفاطميين أن يقمع ثورته وأن يقتله سنة ٣٣٥ ﻫ . فلو قدر النجاح لثورة أبى يزيد هذه لتغير وجه التاريخ ، ولما كان للاسماعيلية هذا الشأن فى توسيع أرجاء مملكتهم وفى ازدياد عدد أتباعهم حتى إن أملاكهم بلغت من الاتساع ما لم تبلغه دولة إسلامية أخرى بعد عصر الفتوحات الكبرى ، فمنذ استطاع المهدى تأسيس دولته بالمغرب . وضع لنفسه سياسة الاتجاه نحو بلاد المشرق ، وتوسيع رقعة مملكته

فى البلاد التى تقع شرقى تونس ، وضع المهدى هذه السياسة التى أصبحت سياسة خلفاء الفاطميين من بعده ، وضعوها نصب أعينهم جميعاً وهم لا يزالون فى المغرب ، ولما تم لهم امتلاك مصر فى عهد المعز لدين الله رابع خلفائهم تطلعوا إلى فتح البلاد التى تلى مصر شرقاً عملا بالسياسة التى رسمها لهم المهدى ، ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب إلحاح عبيد الله المهدى فى فتح مصر ليتخذها مركزاً لتحقيق ما كان يطمح إليه من التوسع إلى الشرق ، فقد بعث المهدى إلى مصر ثلاث حملات حربية لمحاولة فتحها وانتزاعها من أيدى الإخشيديين ، ولكن باءت هذه الحملات كلها بالفشل ، إذ أسرع العباسيون بإرسال نجدات قوية إلى مصر دحرت جيوش الفاطميين الجرارة ، وردتهم على أعقابهم بعد نجاحهم فى الاستيلاء على الإسكندرية وبعض المدن المصرية الغربية ، ثم توقفت الحملات الحربية على مصر بسبب ثورات قبائل المغرب ضد الفاطميين ، ولكنهم لم يقلعوا عن التدابير التى تمكن لهم من تحقيق حلمهم الذى يرمى إلى التوسع فى الاستيلاء على بلاد المشرق فإذا كان هتلر مستشار ألمانيا قد فخر بأنه أوجد نظام الطابور الخامس فى البلاد التى أراد الاستيلاء عليها ، وعد عمله هذا تقليداً جديداً فى السياسة والحرب ، وهلل له أصدقاؤه وخشيه أعدؤه ، وإذا كانت روسيا قد نجحت فى بعض البلاد بفضل تنظيمات الخلايا الشيوعية ، فإن هذه التنظيمات التى تجرى فى عصرنا الحديث لا تقاس بشىء

بالنسبة إلى تنظيمات الإسماعيلية فى الدعاية ، وكان ذلك منذ أكثر من ألف سنة ، وسنتحدث فى كتابنا هذا عن التنظيمات الإسماعيلية فقد فطن الإسماعيلية إلى الدعاية وما لها من نتائج وآثار لعلها تكون أقوى من الحملات الحربية ، وقد فشلت حملاتهم الأولى على مصر ، فأرسلوا إلى مصر حملة من الدعاة يبشرون بعقائد الإسماعيلية وفضائل الأئمه وقرب الخلاص من ظلم الحاكمين وجشع الإخشيديين ، ويعدون الناس بعدالة اجتماعية فى ظل حكم إمام من نسل رسول الله (ص) .

ويذكر المؤرخون أسماء بعض هؤلاء الدعاة الذين كان لهم شأن فى مصر قبل أن تفتح حربياً ، فمنهم الداعى فيروز وكان كبير دعاتهم ، ولكنه نافق الأئمة وغدر بالإمام المهدى وترك مصر إلى اليمن حيث اتصل بعلى بن الفضل الذى نافق باليمن ، وقام بقيادة حملة الدعاية فى مصر أيضاً الداعى أبو على — وكان صهر فيروز ولكنه ظل على وفائه للمهدى — ثم ابنه محمد أبو الحسين ابن الداعى أبى على ، وقد بلغ هذا الداعى أعلى مراتب الدعوة فى عهد الأئمة المهدى والقائم والمنصور بالله والمعز لدين الله ، كذلك نسمع عن الداعى أبى جعفر بن نصر الذى كان له مكانة خاصة فى نفوس المصريين ، وكان من جلساء كافور الإخشيد ، وكانت داره بالفسطاط مجمعاً للعلماء والعظماء ، ولا شك أنه كان يبث فيهم آراءه وتعاليمه دون أن يخشى بطش كافور أو عيون الخلفاء العباسيين ، فبفضل جهود

هؤلاء الدعاة ، دخلت التعاليم الإسماعيلية مصر . وقبلها بعض المصريين قبل أن تدخلها جيوش المعز لدين الله سنة ٣٥٨ ه بل ذهب المؤرخون إلى أن كثيراً من المصريين من المسلمين والأقباط كاتبوا المهدى لغزو مصر وبعضهم كتب يهجوه وفى ذلك يقول أحد الشعراء المصريين يهجو المهدى :

فمن أنت يامهدى السفاهة والخنا
أبِنْ لى فقد حقت على وجهك الريب
فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب
عن الناس ما تسمو إليه من النسب
ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً
يذبون عنها بالأسنة والشهب
أبحت فروج المحصنات وبعت من
أصبت من الإسلام بيعك للجلب
وكم مصحف حرقته فرماده
مثاره مسفى الريح من حيث ما تهب
كفرت بما فيه وبدلت آيه
وقضبت حبل الدين كفراً فما انقضب

وقال آخر فى مكاتبة المصريين للمهدى :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر له خرط القتاد وأى خرط

وأقبل جاهلا حتى تخطى ... وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه ... من أقباط بمصر وغير قبطى
وكل كاتبوه ونافقونا ... وكل فى البلاد له موطى

كان ذلك كله قبل أن يتمكن القائد أبو الحسين جوهر الكاتب من أن يفتح مصر بجيوشه ، ومهما يكن من شيء فقد دخلت جيوش الشيعة الإسماعيلية مصر سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر الصقلى وأدال من دولة الإخشيديين ، وبنى مدينة القاهرة وشيد فيها الجامع الأزهر استعداداً لأن تكون هذه المدينة عاصمة ملك الفاطميين ومركزاً عاماً لقيادة دعوتهم ، حتى يستطيعوا أن يحققوا سياستهم فى الاتجاه نحو بلاد الشرق الإسلامى التى كانوا يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية عدوتهم اللدود ، وكانت كل الظروف مهيأة لتحقيق حلمهم ، فالحالة السيئة التى كان عليها خلفاء بنى العباس إذ ذاك كانت من أهم الأسباب التى ساعدت على انتشار نفوذ الإسماعيلية فى البلاد الإسلامية ، فقد كان خلفاء بنى العباس ألعوبة فى أيدى قوادهم من الأتراك منذ استعان بهم المعتصم العباسى ثم جاء البويهيون ، وهم من الديلم وكانوا يبطنون التشيع ويتظاهرون به أحياناً ، واستولوا على مقاليد الحكم فى فارس والعراق ، فأصبح الخلفاء العباسيون لاحول ولا طول معهم سوى الدعاء باسمهم على المنابر ، أما السلطة الفعلية وتصريف أمرر البلاد فكانت بأيدى البويهيين ،

وبجانب ذلك فقد انقسمت أملاك العباسيين إلى دويلات وإمارات صغيرة وحارب بعضها بعضاً ، وكان أمراء هذه الدويلات لا يبالون فى قليل ولا كثير بالخلافة العباسية المريضة المتهالكة ، إنما اهتم كل أمير بنفسه وباستقرار الحكم لأبنائه من بعده ، وتوسيع رقعة دويلته ولو كان ذلك كله على حساب الخليفة العباسى نفسه ، وكانت الشعوب فى هذه الإمارات تتطلع إلى منقذ ينقذهم من الأمراء ، ويعمل على أن يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ، أى أن هذه الشعوب المعذبة كانت تتطلع إلى المهدى المنتظر الذى سينشر العدل بين الناس ، وهذا هو أول عامل فى الدعوة الشيعية عامة استغله دعاة الإسماعيلية المنبثين فى كل مجتمع ، فنشروا بين الشعب ، أحاديث كثيرة عن عدل أئمة الإسماعيلية ، وأنهم ما قاموا بتأسيس دولتهم إلا لخير الإنسانية ورفاهية المجتمع ، مما جعل الناس فى جميع البلاد الإسلامية ينظرون إلى خلفاء الدولة الفاطمية الفتية نظرتهم إلى أملهم فى الخلاص من شقائهم ، واعتنق كثير منهم المذهب الإسماعيلى لا إعجاباً منهم بالعقيدة الإسماعيلية ، إنما لأملهم فى أن يحكم الأئمة بلادهم فيسود فيها العدل والسلام ، وقويت روح الشيعة الإثنى عشرية فى العراق وفارس لوجود دولة شيعية تستطيع أن تحميهم وتساعدهم إنه حاق بهم مكروه ، كما كان لوجود البويهيين أثر فى قوة الشيعة وانتشار آرائهم ، ويقال إن البويهيين أنفسهم هموا بالدعوة للإمام الإسماعيلى

على منابر بغداد لولا أن ظروفاً سياسية خاصة منعتهم من ذلك ؛ كل هذه العوامل ساعدت أئمة الإسماعيلية على بسط سلطانهم على بلاد الشام والعرب واليمن ، كما كانت شمال أفريقية من المحيط الأطلسى حتى برزخ السويس وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا تدين بطاعتهم وتكوّن أجزاء من إمبراطوريتهم ، وفى الوقت نفسه كان لهم أتباع عديدون منتشرون فى بلاد فارس والهند ، وذلك كله بفضل جهود الدعاة الذين بعثوا بهم فى كل مجتمع ، حتى إن الأمير نصر بن أحمد السامانى اعتنق مذهبهم على يد الداعى النسفى ، والملك أبا كاليجار البويهى ملك فارس اعتنق هذا المذهب على يد الداعى المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى ، بل استطاع الفاطميون أن يستميلوا إليهم أبا الحارث البساسيرى قائد القوات العباسية بالعراق ، فامتلك بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، وخطب على منابرها باسم صاحب مصر الإمام الإسماعيلى المستنصر بالله ، وظلت الخطبة له فى بغداد لمدة سنة كاملة ، انتشر فيها المذهب الإسماعيلى فى العراق انتشاراً سريعاً واستجاب لدعوتهم أمير الحلة وأمير واسط وأمير الكوفة وأمير بلاد الجزيرة وغيرهم من أمراء العراق ، ولولا هزيمة الإسماعيلية الفاطميين أمام جيوش طغرل بك السلجوقى ، وتهاون الوزراء فى مصر لأسباب شخصية محضة لاكتسح الإسماعيلية جميع البلاد الإسلامية فى الشرق وأخضعوها لسلطانهم حتى جبال هيملايا ، ولحقوا بذلك سياستهم

التقليدية التى رسمها مؤسس دولتهم عبيد الله المهدى . ولكن ظهور السلاجقة الأتراك وانتصارهم على جيوش الفاطميين حالا بينهم وبين أطماعهم فى تحقيق حلمهم ، كما كان لظهور حركة الصليبيين فى أوربا وحشدهم الجموع الغفيرة لاستخلاص الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين ، ثم طمعهم بعد ذلك فى الاستيلاء على بعض البلاد الشامية التى كانت فى قبضة الدولة الفاطمية ، كان لذلك أثر كبير فى إضعاف نفوذ الإسماعيلية فى العالم الإسلامى ، أضف إلى ذلك ما حل بمصر مركز دولتهم وقلبها النابض من محن ومجاعات وما ترتب على ذلك من ثورات أثرت على الحياة الاقتصادية ، بحيث اضطر الإمام الإسماعيلى إلى أن يتقبل إحسان بعض المحسنات التى كانت تبعث إليه برغيفين كل يوم ، كما كان يستعير بغلة داعى الدعاة ليركبها وذلك لخلو قصوره من المأكل ومن الدواب ، فطمع بعض الأمراء فى الاستقلال بإماراتهم . ومن الطريف حقاً أن تكون بلاد المغرب أول بلاد خلعت طاعة الإمام الإسماعيلى ، وأعادت مذهب أهل الجماعة والسنة ، مع أن بلاد المغرب كما رأينا من قبل كانت البلاد التى نصرت عبيد الله المهدى ، وساعدته فى تأسيس دولته وبسط نفوذه . وقد أراد أحد وزراء الفاطميين بمصر أن يعاقب بلاد المغرب على تمردها وخروجها عن طاعة الفاطميين فبعث إليهم بجيش قوامه عرب بنى هلال الذين كانوا يعيثون فساداً فى البلاد

المصرية ويكثرون القتل والنهب دون خشية السلطان ، فجندهم الوزير المصرى وأرسلهم إلى المغرب ، وهناك كانت لهم وقائع وحوادث هى الأساس فى تلك القصة الشعبية المعروفة « قصة أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة » التى لا تزال تنشد إلى يومنا هذا .

كذلك ضعفت هيبة الإمام الإسماعيلى فى مصر عاصمة إمبراطوريتهم، وقدذكرنا من قبل كيف تهكم المصريون بنسبهم منذ قدومهم البلاد المصرية بالرغم من وجود عدد من المصريين رحبوا بهم واعتنقوا مذهبهم ، ولكن ظهرت حركة تأليه الحاكم بأمر الله على أيدى دعاة من الفرس وفدوا على مصر يبشرون بمقالتهم الإلحادية الجريئة ، وقام المصريون يناهضون هذه الآراء تارة بالاعتداء على دعاة التأليه حتى قتلوا أحدهم وفر الباقون من مصر خوفاً على حياتهم ، وتارة أخرى باستخدام المصريين سلاحهم التقليدى وهو التهكم والسخرية وإرسال النكتة بالإمام تلو النكتة الحاكم بأمر الله وفكرة تأليهه وبدعاته ، فأزمع الحاكم بأمر الله على أن ينتقم من المصريين فأحرق مدينة الفسطاط ، فازداد سخط المصريين على الأئمة الإسماعيلية ، وكثر تندر المصريين بهم ، وطرحوا عقيدة الإسماعيلية من نفوسهم ، أو على الأقل كثر شكهم فى العقائد الإسماعيلية ، كما أن الوزراء انتهزوا فرصة ضعف الأئمة الإسماعيلية واعتمادهم على الجنود المرتزقة أو على المماليك من السودان والأرمن والصقالبة فتلاعبوا بالأئمة وبمصالح البلاد ، وكثرت المنازعات

والمشاحنات على تولى منصب الوزارة ، فكان كل واحد من هؤلاء المستوزرين يعمل لمصلحته الشخصية دون اهتمام بمصلحة البلاد أو مراعاة للنظام القائم أو لإمام العقيدة التي دانوا بها إلى درجة أن هؤلاء الوزراء تلاعبوا بالعقيدة نفسها ، ولم يبالوا بها ، فكانوا يعينون الإمام الذي يريدونه حتى لو لم يكن له الحق — حسب العقيدة الإسماعيلية — فى الإمامة ، فالعقيدة الإسماعيلية توجب تسلسل الإمامة فى الأعقاب مع وجوب النص على من يتولى الإمامة من أولاد الإمام ، ولكن هذه العقيدة الأساسية التي قام عليها مذهب الإسماعيلية والتي تكونت على أساسها فرقة الإسماعيلية لم يأبه بها الأئمة أنفسهم ، فمن باب أولى أن يتلاعب بها الوزراء ، فقد حدث أن المعز لدين الله الإمام الرابع من أئمة دور الظهور نص على أن يليه ابنه عبد الله ، ولكن عبد الله توفى فى حياة أبيه فعاد المعز ونص على ابنه العزيز دون أن يقيم وزنا للعقيدة الإسماعيلية ، وحدث كذلك أن الإمام المستنصر بالله نص على أن يتولى الإمامة بعده ابنه نزار ، ولكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى الأرمنى الجنس انتهز فرصة وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ ﻫ وأعلن إمامة المستعلى بن المستنصر — وكان طفلا صغيراً — وهو ابن أخت الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، وليس بغريب أن ينحى الوزير صاحب النص عن حقه ويولى ابن أخته الصغير حتى يتمكن من فرض سلطانه فرضاً تاماً على الإمام وعلى البلاد بأسرها ،

ولم يكتف الوزير بإهمال نزار بن المستنصر صاحب الحق فى الإمامة بل نراه يقبض عليه وعلى ابنه ويحبسهما فى أحد حصون القاهرة ثم يبنى عليهما حائطاً إلى أن توفيا ، الأمر الذى ترتب عليه أن عدداً كبيراً من الدعاة ومن أتباع المذهب الإسماعيلى أبوا أن يبايعوا المستعلى ، ولم يعترفوا بإقامته ونادوا بإمامة نزار وأبنائه من بعده ، وبذلك انقسمت الفرقة الإسماعيلية إلى فرقتين : فرقة الإسماعيلية النزارية أو الإسماعيلية الشرقية وفرقة الإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربية ، كما ترتب على ذلك أيضاً أن ازداد ضعف العقيدة الإسماعيلية فى نفوس المصريين وازداد تهكمهم بالأئمة والوزراء مما سهل لصلاح الدين يوسف بن أيوب أن يمحوها من مصر على نحو ما سنذكره .

انقسمت الإسماعيلية إذن إلى هاتين الفرقتين النزارية والمستعلية سنة ٤٨٧ هـ ، وكان بعض أتباع الدعوة الإسماعيلية قد انشقوا عنها سنة ٤٠٨ هـ وكونوا لأنفسهم مذهباً خاصاً بعيداً كل البعد عن العقائد الإسماعيلية ، فقد ذكرنا أن بعض الدعاة من الفرس وفدوا على مصر ونادوا بألوهية الحاكم بأمر الله ، وكان على رأس هؤلاء الدعاة حمزة بن أحمد والدرزى وخوتكين ، وقلنا إن المصريين ثاروا ضد هؤلاء الدعاة ثورة عنيفة وقتلوا خوتكين وبعض أتباعه ، فهرب الدرزى وحمزة إلى بلاد الشام حيث استطاعا أن يجدا شيئاً من النجاح فى جذب بعض قبائل بنى كلب إلى آرائهما ، وأوجدا

فرقة خاصة منشقة عن فرقة الإسماعيلية هى الفرقة التى تعرف الآن بالدروز المقيمين فى سورية ولبنان وشمال فلسطين .

فالدروز إذن فرقة كانت من الإسماعيلية ثم اتخذت لنفسها عقائد وآراء خالفت بها العقائد والآراء الإسماعيلية إلى درجة أن دعاة الإسماعيلية أنفسهم اضطروا إلى الرد على دعاة تأليه الحاكم الذين أنشأوا فرقة الدروز ، بل اضطر أكبر عالم من علماء المذهب الإسماعيلى حينذاك (أى فى سنة ٤٠٨ هـ) ، وهو أحمد حميد الدين الكرمانى إلى أن يترك مقره بالعراق ، وأن يفد إلى مصر ليهدئ ثورة دعاة الإسماعيلية فيها ضد فكرة تأليه الحاكم بأمر الله ، وأن يفند آراء دعاة التأليه ، وكتب فى ذلك رسالته المعروفة «بالرسالة الواعظة[1]» ، يثبت فيها كفر وإلحاد كل من تحدثه نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله ، ولم يترك أحمد حميد الدين الكرمانى مصر إلا بعد قتل الحاكم بأمر الله ، فانشقاق الدرزية عن الإسماعيلية هو أول انقسام حدث فى الطائفة الإسماعيلية ، وكان الانقسام الثانى هو ظهور فرقة النزارية وفرقة المستعلية ، ولكن هناك ملاحظة جديرة بأن نسجلها الآن لما لها من أهمية فى تاريخ الطائفة الإسماعيلية : تلك أن إمام الإسماعيلية منذ ظهور المهدى سنة ٢٩٧ هـ إلى وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، كان معترفا به عند

---

(١) نشرت هذه الرسالة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٥٢ .

كل أتباع المذهب الإسماعيلى . ولـكن عقائد الإسماعيلية كانت مختلفة باختلاف البلاد ، فالعقائد لم تـكن موحدة ، وكان الدعاة أنفسهم مختلفين فى آرائهم ومعتقداتهم ، مما يجعلنا نقول إن المذهب الإسماعيلى لم يكن واحداً فى أىَ وقت من الأوقات ، وسنفصل ذلك فى حديثنا عن عقائد الإسماعيلية .

أما أئمة دور الظهور حتى الانقسام الثانى فهم :

١ — عبيد الله المهدى . صاحب الظهور بالمغرب : استولى على رقادة فى ٤ ربيع الثانى سنة ٢٩٧ هـ .

٢ — القائم بأمر الله أبو القاسم محمد : تولى الإمامة فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ .

٣ — المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل : تولى الإمامة فى ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ .

٤ — المعز لدين الله أبو تميم معد : تولى الإمامة أول ذى القعدة سنة ٣٤١ هـ ، وفى عهده فتحت مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وانتقل إليها فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ وأصبحت قاعدة ملكه .

٥ — العزيز بالله أبو منصور نزار : تولى الإمامة فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ .

٦ — الحاكم بأمر الله أبو على المنصور : تولى الإمامة فى ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦ هـ .

٧ — الظاهر أبو الحسن على : تولى الإمامـة فى ١٠ ذى الحجة سنة ٤١١ هـ .

٨ — المستنصر بالله أبو تميم معد : تولى الإمامة فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧ هـ وتوفى سنة ٤٨٧ هـ .

هؤلاء هم الأئمة الذين كانوا قبل انقسام الطائفة ، ولنتحدث الآن عن الفرقتين الإسماعيلية الغربية والإسماعيلية الشرقية ، ولن نتحدث عن الدروز لأنهم بعدوا عن الطائفة الإسماعيلية .

الفصل الثالث

الإسماعيلية الغربية

الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية المستعلية هم الذين اعترفوا بإمامة المستعلى بن المستنصر الذى نادى به خاله الوزير الأفضل بن بدر الجمالى إماماً سنة ٤٨٧ ﻫ ، وهؤلاء هم إسماعيلية مصر واليمن وبعض بلاد الشام ، وقد ذكرنا أن المستعلى تولى الإمامة وهو صغير السن إذ كان فى العشرين من عمره ، فترك شئون الحكم وسياسة الدولة إلى خاله الأفضل ، وعكف على اللهو والمجون ، وفى عهده بدأت الحروب الصليبية ، وحاول الأفضل أن يرد الحملة الصليبية ، فخرج من مصر على رأس الجيش لمحاربة الصليبيين ، ولكن الجيش المصرى تمرد ، فاضطر الأفضل إلى العودة إلى مصر دون حرب ، وترك الصليبيين يحققون مطامعهم ، فاستطاعوا أن ينتزعوا البلدة تلو البلدة ، ولم يأبه الإمام الإسماعيلى أو وزيره بخطر المستعمرين الأوربيين ، وما أسسوه من إمارات فى بلاد الشام ، كذلك نقول عن الإمام الإسماعيلى خليفة المستعلى وهو ابنه الآمر بأحكام الله الذى ولى الإمامة وله من العمر خمس سنوات ، وكان فى كفالة الوزير الأفضل ثم فى كفالة أحمد بن الأفضل اللذين استبدا بالسلطان فى البلاد ، وتركا الإمام الآمر للهوه ، ثم

تولى الوزير مأمون البطائحى فاستبد بالسلطة كلها ، وكان الآمر قد شب وكثر عبثه ، فكانت هوايته المفضلة هى الجرى وراء الفتيات الأعرابيات ، وقصته مع الفتاة البدوية التى أولع بها وتزوجها وبنى لها هودجاً فى جزيرة الروضة أصبحت من القصص الشعبية التى يرويها الشعب المصرى مثل قصص ألف ليلة وليلة .

على أن الإمام الآمر قتله الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤ هـ ، وهو يعبر الجسر المؤدى إلى جزيرة الروضة لزيارة معشوقته البدوية ، وكان مقتله بدء تطور جديد فى تاريخ الإسماعيلية ، ذلك أن الإمام الآمر لم ينجب ولداً يتولى الأمر بعده ، فعين عمه الحافظ عبد المجيد ابن المستنصر إماماً بالنيابة أو « إماماً مستودعاً » على حسب اصطلاح الإسماعيلية ، ولكن سرعان ما دعا الحافظ عبد المجيد لنفسه بالإمامة الكاملة بالرغم من مجافاة ذلك للعقيدة الإسماعيلية وللتقاليد السابقة ، ولكن العقيدة الإسماعيلية كان قد ضعف أمرها فى نفوس الناس ولا سيما فى مصر ، ولذلك لم يأبه المصريون إن كان الحافظ عبد المجيد إماماً بالنيابة أو إماماً حقا ، فقد هان أمر الإمامة والعقيدة فى نظرهم منذ عهد الحاكم بأمر الله ، ولم يعد المصريون ينظرون إلى قدسية الإمام إلا إذا استثنينا منهم هؤلاء الوصوليين الذين يريدون تحقيق مآربهم الشخصية ، وخاصة جماعة المتصلين بالقصر ، وقد بلغ من استهانة المصريين بالإمام الحافظ أنهم حاصروه وطالبوه بقتل ابنه الحسن بن الحافظ وإلا قتلوا

الحافظ نفسه ، فاضطر إلى أن يجيبهم إلى طلبهم . ولعل هذه القصة تعطينا فكرة عن مدى ضعف الإمامة الإسماعيلية فى مصر ، ولم يكن للمذهب الإسماعيلى — فى عهد إمامته أو عهد إمامة من تبعه — أتباع إلا من اعتنق الدعوة الإسماعيلية فى عدن ومصر فقط ، إذ فقد هؤلاء الأئمة أتباعهم فى البلاد الأخرى . ثم استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يقوض دولتهم من مصر سنة ٥٦٧ هـ ، ويعيد الخطبة فى مصر للخليفة المستضىء العباسى ، وبذلك انقرض هذا الفرع من الطائفة ولم يعد له وجود بعد ذلك .

هكذا كان أمر الإسماعيلية المستعلية فى مصر وعدن ، ولكن كان للإسماعيلية المستعلية شأن آخر فى اليمن فى عهد الصليحيين الذين رأوا رأياً فى الإمامة بعد اغتيال الآمر يخالف رأى المصريين ، واتخذوا لأنفسهم إماماً غير الذى اتخذه المصريون ، فكونوا بذلك فرقة إسماعيلية مستعلية جديدة هى التى استمرت بعد أن انقرضت فرقة الإسماعيلية المستعلية بمصر على يد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧ هـ ، ولا تزال هذه الفرقة المستعلية الجديدة قائمة إلى اليوم باسم « الإسماعيلية الطيبية » وباسم « الإسماعيلية البهرة » ، وقبل أن نتحدث عن هذه الفرقة نرى أن نلم فى إيجاز بشىء عن الصليحيين الذين أوجدوا هذه الفرقة(١) .

---

(١) للأستاذ المحقق الدكتور حسين فيض الله الهمدانى بحث مستفيض ممتع بعنوان « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » (طبع مكتبة مصر بالفجالة)

رأينا كيف أسس منصور اليمن دولة إسلامية فى بلاد اليمن ولكن هذه الدولة لم تعش طويلا إذ سرعان ما عادت اليمن مرة أخرى إلى حكم القبائل المختلفة المتنافرة المتشاحنة . وكانت أكثر هذه القبائل تدين بالولاء للخلافة العباسية ، على أن عدداً من اليمنيين كان لا يزال على ولائه للإمام الإسماعيلى ، واستمر الأمر كذلك حتى كانت سنة ٤٣٩ﻫ حين قام الداعى على بن محمد الصليحى بثورة استطاع بها أن يخضع بعض قلاع وحصون اليمن لسلطانه وأن يدعو بها للإمام الإسماعيلى المستنصر بالله صاحب مصر ، واستمر فى غزو مدن اليمن حتى دانت له كلها فى سنة ٤٥٥ ﻫ ، بل استمر فى فتوحاته حتى دخل مكة المكرمة ، وكانت قد خرجت عن طاعة الإسماعيليين ، وتهيأ لفتح العراق وانتزاعه من أيدى العباسيين لولا أنه قتل سنة ٤٥٩ ﻫ . ففى مدة حكمه القصيرة التى تبلغ عشرين عاما استطاع أن يوحد بلاد اليمن تحت حكمه وأن يضم إليها بلاد الحجاز ، كما أعاد الدعوة الإسماعيلية إلى اليمن واستمر الحكم فى أهل بيته باسم الإمام الإسماعيلى بمصر ، إلى أن تولت السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية الحكم وفى عهدها توفى الإمام الآمر بأحكام الله وتولى الحافظ عبد المجيد على نحو ما ذكرناه من قبل ، ولكن الصليحيين رفضوا الاعتراف بالحافظ لأنه ليس له حق فى الإمامة ، وزعموا أن إحدى زوجات الإمام الآمر المقتول كانت حاملا ، ثم إنها وضعت طفلا ذكراً

اسمه الطيب بن الآمر ، فالإمامة إذن لهذا الطفل الذى خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله فى « مقطف » إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن ، وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة عليه ونائبة عنه فى تولى شئون الدعوة الإسماعيلية ، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر) . معنى هذا أن الصليحيين باليمن أوجدوا لهم دعوة جديدة : هى الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر الطفل الذى دخل دور الستر ، بحيث أصبحنا لا نعرف شيئاً عن الأئمة المستورين منذ اعتراف الصليحيين بإمامة الطيب ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أسماء هؤلاء الأئمة . وفى اعتقادى أن قصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخى ، فإن أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود الطيب بن الآمر إلا ما نراه فى كتب دعاته . أما ما يقال عن وجود سجل وجّه إلى الملكة الحرة من الآمر قبل مقتله فإنه فى رأيى سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة الطيب ، والصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية بعدهم هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب ، بينما سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه فى كتبهم ، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة الآمر التى كانت حاملا عند موته وضعت أنثى ، ولكن الصليحيين قالوا بل وضعت ذكراً هو الطيب ؛ ونحن نتساءل عن سبب ستره

مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين والسلطان فى أيديهم فلم قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته ، يخيل إلىّ أن الصليحيين وضعوا قصة الأمر هذه ، حتى يتخذوها ذريعة للانفصال من سلطان الفاطميين الدينى وأن يستقلوا بالنفوذ الدينى والسياسى معاً . وأوحى دهاء الملكة الحرة وذكاؤها الشديد وحرصها على أن تجمع فى يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى ، وسار على نهجها كل داع مطلق فى الدعوة إلى الآن . ومهما يكن من شىء فقد انقرضت الدولة الصليحية فى سنة ٥١١ هـ ولم يقم أتباع الدعوة الطيبية بأى نشاط سياسى بعد ذلك ، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا فى محيط خاص بهم ، وكان كثير منهم يتخذ التقية فلا يظهر إسماعيليته بالرغم من وجود داعية لهم ينوب عن إمامهم المستور فى تصريف أمورهم الدينية . وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة لنشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى الهند ، ولا سيما فى ولاية جوجرات جنوب بومباى ، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك ، وعرفت الدعوة بينهم باسم البهرة ، وكلمة البهرة كلمة هندية قديمة معناها التاجر .

ولكن هذه الدعوة الطيبية انقسمت فى القرن العاشر الهجرى إلى فرقتين : فرقة البهرة الداوودية وفرقة البهرة السليمانية ويرجع

هـذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعى المطلق للطائفة ، فالفرقة الداوودية تنتسب إلى الداعى قطب شاه داوود ، وهو الداعى السابع والعشرون من سلسلة دعاة الفرقة المستعلية الطيبية المتوفى سنة ١٠٢١ﻫ ، والفرقة السليمانية تنتسب إلى الداعى سليمان بن حسن الذى أبى أتباعه الاعتراف بداوود واعترفوا بسليمان فى سنة ٩٩٧ ﻫ داعية لهم . على أن مركز دعوة الفرقة الداوودية انتقل من اليمن إلى الهند فى القرن العاشر الهجرى ، وداعيتهم الآن هو طاهر سيف الدين . ويعدّ الداعى الحادى والخمسين من سلسلة دعاة الدعوة الطيبية ويقيم فى مدينة بومباى ، وهو كما ذكرنا برتبة الداعى المطلق ، وهى مرتبة وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وصاحبها يتمتع بنفس الصفات التى كان يوصف بها الأئمة ، على أنها صفات مكتسبة وليست ذاتية . وكذلك داعى الفرقة السليمانية على بن محسن الذى يقيم فى اليمن ، ولذلك يتمتع الداعيان الداوودى والسليمانى بسلطة روحية تامة على أتباعهما ، هى نفس سلطة الأئمة فى العصور الوسطى ، ونستطيع أن ندرك مدى هذه السلطة الروحية التى للداعيين إذا عرفنا أن طائفة البهرة بفرعيها متعصبون أشد التعصب لمذهبهم وعقيدتهم ، ومن ثم حافظوا على تقاليدهم التى ورثوها منذ عهد الصليحيين محافظة تامة ، ولا يقبلون تبديلا لتلك التقاليد أو تطورها مع تطور الزمن ، حتى إنك تعرف فى سهولة رجل البهرة من ملابسه ومن لحيته

وتميز المرأة من البهرة فى الطريق من (الحبرة) التى ترتديها والنقاب الكثيف الذى تخفى به وجهها ، ويتخذون أماكن خاصة لهم للعبادة لا يدخلها غيرهم أطلقوا عليها اسم « جامع خانه » فهم لا يؤدون فريضة الصلاة إلا فى « الجامع خانه » ويرفضون أن يقيموا الصلاة فى المساجد التى لغيرهم من المسلمين ، وذلك إمعاناً منهم فى ستر عقائدهم المذهبية ، والحرص الشديد على أن لا يعرفها غيرهم من الناس ، مع أنهم شديدو التمسك بفرائض الدين وأركانه وأن عقيدتهم فى « الظاهر » لا تختلف عن عقائد غيرهم من المسلمين . أما عقيدتهم فى « الباطن » فهى بعيدة كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، فهم مثلا يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماما ، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلى المستور من نسل الطيب بن الآمر ! ويذهبون إلى مكه المكرمة لتأدية الحج فى موسمه شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين ، ولكنهم يقولون إن الكعبة التى يطوف حولها الحجيج هى رمز على الإمام ، وهكذا على نحو ما سنتحدث عنه فى الفصل الخاص بالعقائد فى هذا الكتاب .

ويجب أن نعترف هنا بهذه الخدمة الجليلة التى أدتها طائفة البهرة للتاريخ الإسماعيلى بفضل محافظتها على التقاليد الإسماعيلية ، إذ استطاع دعاتها أن يحتفظوا بشطر كبير من المؤلفات الدينية

والأدبيـة التي وضعها علماء ودعاة الدعوة فى مصر فى العصر الفاطمى ، بينما ضاعت هذه الـكتب من مصر نفسها ، وكذلك حافظوا على الـكتب التي وضعها دعاة فارس والبمن فى العصر الفاطمى ، فلولا احتفاظ دعاة البهرة بهذه الـكتب الفاطمية لما عرفنا شيئاً عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية إلا عن طريق كتب أعداء الإسماعيلية ، ولـكن مما يؤسف له حقاً أن محافظتهم على التقاليد والقول بستر عقيدتهم أدى بهم إلى عدم السماح لأحد بالوصول إلى كتبهم التي يقدسونها ، حتى إنهم غالوا فى ستر هذه الـكتب ، فلم يكن الدعاة أنفسهم يسمحون لأبناء الطـائفة بالاطلاع على هذه الـكتب ، ومنذ ثلاثة أعوام فقط أذن داعى البهرة بالهند لأفراد الطائفة فقط بالاطلاع على هذه الـكتب ، ومع هذا الحرص الشديد الذى فرضوه على كتبهم فقد تسرب بعضها إلى مكتبات مصر وأوروبا وأمريكا ، وقام بعض الباحثين بنشر قدر لا بأس به من مخطوطاتهم فى مصر وفى غير مصر ، فلا أدرى سبب تمسكهم بالحرص على ستر كتبهم بعد أن نشرت هذه الـكتب وعرفت أسرار عقائدهم . ومن الخير أن أذكر هنا أهم الـكتب الإسماعيلية التي نشرت فى مصر فقط :

١ — كتاب دعائم الإسلام للقاضى أبى حنيفـة النعمان ابن محمد المغربى « نشره الأستاذ آصف على أصغر فيضى » .

٢ — كتاب الهداية الآمرية ، منسوب للإمام الآمر بأحكام الله « نشره الأستاذ آصف على أصغر فيضى » .

٣ — كتاب الكشف ، منسوب لجعفر بن منصور اليمن « نشره المستشرق ستروتمان » .

٤ — كتاب الزينة ، للداعى أبى حاتم الرازى « نشره الأستاذ الدكتور حسين فيض الله الهمدانى » .

٥ — استتار الإمام ، للداعى أحمد بن إبراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف » .

٦ — سيرة جعفر بن الحاجب ، للداعى أحمد بن ابراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف» .

٧ — السجلات المستنصرية (رسائل المستنصر بالله إلى الصليحيين) « نشره الدكتور عبد المنعم ماجد » .

٨ — المجالس المستنصرية ، للداعى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

٩ - الهمة فى آداب أتباع الأئمة ، للقاضى النعمان بن محمد المغربى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٠ — رسالة الرشد والهداية ، للداعى منصور اليمن «نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١١ — ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٢ — سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (كتبها المؤيد نفسه) « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٣ — راحة العقل ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى » .

١٤ — الرسالة الواعظة ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشر الدكتور محمد كامل حسين » .

١٥ — الرسالة الدرية ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشر الدكتور محمد كامل حسين » .

١٦ — رسالة النظم ، للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٧ — ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله « نشر محمد كامل حسين وآخرين » .

١٨ — سيرة الأستاذ جوذر ، لأبى منصور العزيزى « نشره محمد كامل حسين والدكتور محمد عبدالهادى شعيره).

هذه هى أشهر الكتب الإسماعيلية التى نشرت فى مصر فى السنوات العشر الأخيرة فقط ، ومنها ندرك أن دراسة الإسماعيلية دخلت فى دور جديد بعد تسرب الكتب التي يحتفظ بها البهرة فى مكتبات دعاتهم إلى الخارج ، وقد نشط أخيراً الإسماعيلية

وغير الإسماعيلية بالشام فى نشر كتبهم وخاصة ما ألف منها فى المصر الفاطمى ، فقد علمت أخيراً أن أحد أساتذة جامعة دمشق ينشر كتاب « تأويل دعائم الإسلام » ، وأن صديقنا الأستاذ عارف تامر يجمع الآن المخطوطات الإسماعيلية بسورية لإعدادها للنشر ، وفى العراق نشر الأستاذ عباس العزاوى كتاب « سمط الحقائق » للداعى اليمنى على بن حنظلة ، ونشر الأستاذ محمد وحيد ميرزا أستاذ اللغة العربية بجامعة لكنهو بالهند كتاب الاقتصار للقاضى النعمان بن محمد ، وهكذا يوالى الباحثون نشر مخطوطات الإسماعيلية مما سهل دراسة تاريخ وعقائد الإسماعيلية ، وذلك كله بفضل محافظة البهرة على ما تركه أجدادهم فى مصر واليمن . وفضل آخر نذكره لدعاة البهرة الداوودية بالهند : ذلك أنهم أنشأوا لهم فى مدينة سورات بالهند مدرسة لتدريس اللغة العربية والعقائد الإسماعيلية أطلقوا عليها أخيراً اسم « الجامعة السيفية » . ولا أغالى إذا قلت إن علماء البهرة فى الهند أقدر من الهند على التحدث باللغة العربية وفهمها ، وقد اعتاد « طاهر سيف الدين » داعى البهرة الداوودية أن يلقى بنفسه محاضرات على أتباعه فى شهر رمضان من كل عام باللغة العربية ، وتطبع هذه المحاضرات فى مجلدات باسم « الرسالة الرمضانية » فلولا محافظة البهرة على تقاليدهم القديمة واهتمامهم بآثار من سبقوهم لضاعت اللغة العربية بينهم ، حقيقة أن طائفة البهرة فى الهند يتحدثون اللغة الجوجراتية أو اللغة الأوردوية ،

ولـكن العلماء منهم يجيدون العربية إجادة تامة ، وطائفة البهرة بفرعيها يحترفون التجارة وخاصة تجارة الحدايد وأدوات المعار والمنسوجات ، ولا يزيد عددهم فى العالم على مائتى ألف نسمة تراهم متفرقين فى بلاد الهند والباكستان وعدن ، وفى جبال حراز باليمن طائفة منهم يطلق عليهم الآن القرامطة أو الباطنية ولا يعرف عددهم تماما ، والبهرة أينما وجدوا يمثلون الأقليات أظهر تمثيل من ناحية الوحدة القومية التى تربطهم بعضهم ببعض وروح التعاطف والمساعدة مما جعلهم فى حالة مالية يحسدهم عليها الـكثيرون ، فلا تجد بينهم فقيراً أو محتاجاً ، وإذا حلت بأحدهم كارثة هب الباقون لمساعدته ، وهم جميعاً يقدسون داعيهم المطلق تقديساً تاماً ويطيعونه طاعة عميـاء ، وقد استغل المستعمر الإنجليزى هذه الظاهرة فمنح الدعاة من أسلاف « طاهر سيف الدين » نفوذاً ضخماً عريضاً فى الهند ، إذ ترك لهم الإنجليز كل السلطة على أتباعهم حتى إنهم كان فى استطاعتهم أن يحرموا الموتى من الدفن فى مدافن الطائفة ، وكان لهم أن ينبشوا قبورهم انتقاماً من أحد الأفراد ممن سولت له نفسه الخروج عن طاعتهم ، ولهم أن يستولوا على مايتركه الميت من ذخائر ونفائس دون أن يجرؤ أحد على مخالفة أمرهم ، واستغل الداعى سلطانه هذا لتنمية ثروته ومضاعفتها ، فـكان يفرض ضرائب عجيبة على أتباعه ، فمثلاً كل من يخالف التقاليد كان يدفع ضريبة للداعى ، فإذا أراد

أحد أفراد الطائفة أن يحلق لحيته فعليه أن يدفع ضريبة للداعى ، وإذا أراد فرد أن يرتدى الزى الأوربى فعليه أن يدفع ضريبة للداعى ، وكل من يذهب إلى الحج عليه أن يدفع الضريبة وأن ينزل فى الفنادق التى أقامها الداعى فى مكة والمدينة وأماكن الزيارة بالعراق وتعرف « بالبهرة خانه » . أما الآن بعد استقلال الهند فقد أصبح الداعى مواطناً عادياً خاضعاً للقانون شأنه فى ذلك شأن أى فرد فى الدولة ، وتقلص نفوذه السابق فأصبح لا يخشاه أتباعه كما كانوا يخشونه من قبل ، وإن كانوا لا يزالون يقدسونه . ومع هذا النفوذ المطلق الذى كان للداعى قبل استقلال الهند ، فقد انشق من رياسته وخلع طاعته بعض أفراد نقموا منه بعض تصرفاته المالية وكونوا لأنفسهم فرقاً صغيرة ، نذكر من هؤلاء على بن إبراهيم (المتوفى سنة ١٦٢٤ م) الذى كون فرقة العلوية ، ومنهم فرقة الناجوشية الذين يقيمون فى ولاية بارودا بالهند ، وهذه الفرقة كانوا فى الأصل من براهمة الهند ثم اعتنقوا الإسماعيلية الطيبية حوالى سنة ١٧٨٩ م ، ولذلك تراهم يتبعون فى معيشتهم نفس التقاليد التى عند البراهمة ومنها عدم أكل اللحوم ، وفرقة الهبتية أتباع هبة الله بن إسماعيل ابن عبد الرسول المتوفى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وهؤلاء يقيمون الآن فى أوجاف بالهند ، وفرقة مهدى باغ اتباع عبد الحسين بن جوانجى المتوفى فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ويقيمون الآن فى ناجبور بالهند ، وغير ذلك من الفرق

الصغيرة التى انشقت عن الفرقة الطيبية الداوودية ، ولكن أتباع هذه الفرق قليلو العدد جداً ، وليس لهم أى نشاط سياسى أو اجتماعى إلا فى حدود فرقتهم فقط .

هكذا كان شأن الدعوة الإسماعيلية الغربية أو الاسماعيلية المستعلية التى كان مركزها مصر ، ومع ذلك لا يوجد الآن من المصريين إسماعيلى واحد بالرغم من أن الإسماعيلية حكموا مصر زهاء قرنين من الزمان ، ولكن زال من مصر كل ما بذره الإسماعيلية فيها ، ويخيل إلى أن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة عن عقيدة يدينون بها ، إنما اعتنقها بعض المصريين عن رهبة أو عن رغبة عاجلة ، ثم سرعان ما عادوا إلى صوابهم فطرحوا هذه العقيدة ، وعادوا إلى رأى أهل السنة والجماعة ، ومع ذلك كله فلا تزال بعض الرواسب الإسماعيلية فى مصر ولا سيما عند الدهماء والعامة ، وسنتحدث عنها فى فصل العقائد الإسماعيلية .

أما أئمة الدعوة الإسماعيلية فى مصر فهم :

١ — المستعلى أبو القاسم أحمد : تولى فى ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ .

٢ — الآمر أبو على المنصور : تولى فى صفر سنة ٤٩٥ هـ .

٣ — الحافظ أبو الميمون عبد المجيد : تولى فى المحرم سنة ٥٢٥ هـ .

٤ — الظافر أبو المنصور إسماعيل : تولى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ .

٥ — الفائز أبو القاسم عيسى : تولى فى صفر سنة ٥٤٩ هـ .

٦ — العاضد أبو محمد عبد الله : تولى فى رجب سنة ٥٥٥هـ .

والذين يعترف بهم البهرة من هؤلاء الأئمة هم المستعلى والآمر فقط ثم الطيب بن الآمر الذى دخل الستر سنة ٥٢٥ هـ . والأئمة المستورون من نسله إلى الآن . وهؤلاء الأئمة الذين فى الستر لا نعرف شيئاً عنهم حتى إن أسماءهم غير معروفة ، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم .

الفصل الرابع

الإسماعيلية الشرقية فى فارس

كان للإسماعيلية الشرقية أو الإسماعيلية النزارية شأن خطير يختلف تمام الاختلاف عما كان للإسماعيلية الغربية ، فقد قام النزارية بدور كبير فى السياسة فى إيران والهند والشام ، وخشى بطشهم الملوك والأمراء ، كما كان لهم أثر يذكر فى الحروب الصليبية ، وذلك كله يرجع إلى النظام الجديد الذى أوجدوه فى فرقتهم وهو نظام الفدائيين .

ذكرنا أن الوزير فى مصر الأفضل بن بدر الجمالى ولى ابن أخته المستعلى إمامة الإسماعيلية ، فثار صاحب الحق الشرعى فى الإمامة وهو نزار بن المستنصر ، ولكن فشلت ثورته وقبض عليه هو وابنه وقتلا ؛ وكان بمصر داعية من فارس وهو الحسن ابن الصباح ، جاء إليها حاجاً إلى إمامه المستنصر بالله وذلك قبل موته ببضع سنين ، وسمع منه أن نزاراً هو صاحب الأمر من بعده ، فلما عاد إلى بلاده من مصر ، جمع حوله عدداً من الفلاحين الإيرانيين ، واستجاب له كل من شعر بظلم السلاجقة الأتراك وسوء حكمهم ، ولا سيما ما كان من ملكشاه السلجوقى الذى كان

غشوماً ظالماً إلى أبعد حد ، فقد اضطهد الناس جميعاً ولا سيما طائفة الشيعة وخاصة الإسماعيلية منهم اضطهاداً شديداً لم يعرف من قبل ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، مما جعل الناس فى عهده تراودهم أحلام الشيعة الذهبية القديمة من تمنى وجود إمام يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، فجاءهم الحسن بن الصباح يبشر بقرب تحقيق هذا الحلم ، فاستطاع فى فترة وجيزة وبمن التف حوله من جموع الفلاحين أن يصارعوا أعداء الإسماعيلية صراعاً عنيفاً جداً .

واتخذ الحسن بن الصباح مبدأ القتل وسيلة لتحقيق أهدافه ، فكان يأمر أتباعه باغتيال كل من يقف فى طريقه أو يخاصمه ، حتى استطاع أن يمتلك قلعة آلموت (جنوبى بحر قزوين) ، وأن يؤسس بها الدولة الإسماعيلية التى عرفت فى التاريخ بأسماء متعددة مثل الإسماعيلية — النزارية — الباطنية — السبعية — التعليمية — الحشيشية — الملاحدة — وعرفت عند كتاب الغرب باسم السفاكين . ووضع لهذه الدولة نظما تختلف تمام الاختلاف عن النظم التى رأيناها عند الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية فى العصر الفاطمى . وقطع الحسن بن الصباح علاقته بأئمة الإسماعيلية الغربية واعتبرهم من أعدائه الألداء ، بل عمل على إزالتهم من الوجود ، فأرسل الفدائيين لاغتيالهم ، كما كان يغتال جميع أعدائه ، حتى ضج الناس من كثرة قتلاه ، وخاف كل واحد على حياته ، ويكفى أن أنقل

هنا ما ذكره المؤرخ عماد الدين الأصفهانى فى كتابه « تاريخ دولة آل سلجوق » عن الحالة العصيبة التى أصابت المجتمع الإسلامى فى تلك الأيام وكيف كان الإنسان لا يأمن على نفسه أو ذويه من بغتات الفدائيين ، حتى إن الأخ لم يكن يثق بأخيه أو الأب بابنه ، فهو يقول : « فنابت النوائب وظهرت العجائب ، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا ، وكانوا معنا فى المكتب ، وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والأدب ، وكان بينهم رجل من أهل الرأى ساح فى العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، نخفى أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع معينة وبدأ فى القتل والفتك بأمور شنيعة وخفيت عن الناس أحوالهم . . وأخافوا السبل وأجالوا على الأكابر الأجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير ويعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ نفسه منهم حيلة » ، هذا ما قاله المؤرخ العماد الأصفهانى الذى عاش فى أيام هلع الملوك والأمراء من الفدائيين الذين أنشأهم الحسن بن الصباح ، فمن هو الحسن بن الصباح هذا الذى أوقع الرعب فى نفوس الناس إلى هذا الحد .

الحسن بن الصباح :

ولد الحسن بن الصباح فى مدينة الرى (وفى قول آخر فى مدينة قم بفارس) حوالى سنة ٤٣٠ هـ فى أسرة اتخذت التشيع

على مذهب الاثنى عشرية مذهباً لها ، وكان الشيعة عامة مضطهدين فاتخذوا التقية وأظهروا تمذهبهم بالمذهب السنى بين الناس حتى لا يحيق بهم الأضرار ، وعلى هذا النحو فعل والد الحسن بن الصباح ، إذ أظهر تسننه وأرسل ابنه الحسن إلى نيسابور لتلقى العلم على الإمام موفق الدين النيسابوري السنى المذهب الذى عرف بين الخاصة والعامة فى ذلك الوقت بأن ما من أحد تتلمذ عليه إلا أقبلت عليه الدنيا ووفق فى مستقبل حياته توفيقاً يحسد عليه ، وأثناء طلب الحسن العلم فى نيسابور اتخذ أصدقاء له ولكنه اصطفى منهم اثنين أصبح لهما شأن كبير فيما بعد هما الوزير نظام الملك والشاعر المتصوف عمر بن الخيام ، واستطاع نظام الملك أن يساعد الحسن بن الصباح فألحقه فى وظيفة بديوان الكتابة فى بلاط الملك ملكشاه ، وسرعان ما أصبح ذا حظوة لدى السلطان فترقى سريعاً فى وظائف البلاط ، إلا أن ملكشاه وموظفيه فطنوا إلى مطامع الحسن بن الصباح وأساليبه العنيفة التى يتبعها للوصول إلى أغراضه ، ثم حدث بينه وبين صديقه نظام الملك خلاف على شىء من المال فكان ذلك سبباً فى طرده من بلاد ملكشاه .

ويحدثنا المؤرخ الفارسى علاء الدين الجوينى فى كتابه « جهان گشاى » أنه نقل عن سيرة الحسن بن الصباح التى

كتبها عن نفسه أنه قال عن نشأته الأولى وعن اعتناقه المذهب الإسماعيلى :

« منذ طفولتى بل منذ السابعة من عمرى كان جل اهتمامى تلقى العلوم والمعارف ، والتزود بكل ما أستطيعه منها فى سبيل توسيع مداركى ، وكنت كآبائى قد نشأت على المذهب الاثنى عشرى فى التشيع ، ولم أكن أرى فى غيره طريقاً للخلاص من آفات العالم ، ولكن حدث أن تعرفت فى شبابى إلى أحد دعاة الاسماعيلية الفاطميين ، فكنت أجادله جدالا عنيفاً ، وأخذ كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية ، إلا أن حججه الدامغة تركت عندى أثراً قوياً جداً ، ثم افترقت عن الداعى قبل أن أعتنق مذهبه ، وبعد قليل أصابنى مرض ألزمنى الفراش ، فخشيت أن تختطفنى يد المنون قبل أن أتطهر باعتناق المذهب الاسماعيلى إذ اعتزمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتى مع الداعى ، ولما عوفيت وتعرفت إلى أبى نجم السراج ، رغبت إليه فى أن يزيدنى حديثاً عن مذهبه ، وأخذت أفكر تفكيراً عميقاً فى تعاليم هذا المذهب ، ثم قدر لى أن أتعرف بالداعى مؤمن ، وكان موفداً إلى مدينة الرى من قبل عبد الملك بن عطاش داعى الدعاة فى العراقين (أى فى العراق العجمى والعراق العربى) فتوسلت إليه أن يقبل منى البيعة للخليفة الفاطمى بمصر ، وأن يأخذ علىّ العهود والمواثيق ، فتردد الداعى ثم أجابنى إلى طلبى

وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمى بمصر ، ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعى الدعاة إلى الرى مثلت بين يديه ، ولما وقف على آرائى واختبر استعدادى ، عهد إلىّ ببث الدعوة ، وبذلك أصبحت داعياً اسماعيلياً ، ثم وجهنى بقوله : « عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر » ولما غادر عبد الملك بن عطاش الرى فى طريقه إلى أصبهان ، كنت أنا أيضاً فى طريقى إلى القاهرة .

هكذا اعتنق الحسن بن الصباح مذهب الإسماعيلية ، وجعله داعى الدعاة عبدالملك بن عطاش داعياً للمذهب ، بل أمره بالوفود إلى القاهرة ليستقى علوم الدعوة عن شيوخها الذين كانوا حول الإمام ثم لمقابلة الإمام نفسه ، وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الاسماعيلية ، بل هى التأويل الباطنى للحج عندهم ، فالحج الظاهر هو زيارة بيت الله الحرام ، أما الحج الباطن فهو زيارة الإمام ، ومهما يكن من شىء فإن اختيار ابن عطاش له ليكون داعياً دليل على ما كان يتمتع به الحسن الصباح من صفات خلقية وعقلية أهلته لأن يكون داعيا للمذهب ، فلم يكن من السهل أن يصل كل اسماعيلى إلى هذه المرتبة الروحية عندهم ، فقد وضعوا شروطاً خاصة لمن يتولى الدعوة توافرت كلها فى الحسن بن الصباح ، وسنتحدث عن ذلك فى الفصل الذى نعقده لشرح نظم الدعوة .

وصل الحسن بن الصباح إلى القاهرة سنة ٤٧١ هـ ، وكان

طول الطريق يمنى نفسه أن يأخذ علوم الدعوة الإسماعيلية عن المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الشيرازى الذى كان فى مرتبة داعى الدعاة وحجة الإمام ، وهى مرتبة لم يصل إليها فى تاريخ الاسماعيلية إلا عدة أفراد فقط . ولكن المؤيد توفى قبل أن يصل ابن الصباح إلى القاهرة ، ووجد ابن الصباح كتب المؤيد وتلاميذه فاشتدت صلته بهم ، ويخيل إلىّ أنه لم يجد من الوزير فى مصر « بدر الجمالى » ما كان يؤمله من ترحيب ، بل ظهر تبرم الوزير لمقام ابن الصباح فى مصر ، ولا سيما أنه بهر كل من اتصل بهم بحدة ذكائه وتوقد ذهنه ، وما أظهره من إخلاص لإمامة المستنصر بالله واستعداده أن يضحى بنفسه فى سبيل الإمام ، فخشى الوزير بدر الجمالى منه وعمل جاهداً على إخراجه من مصر ، فبدأ الوزير يدبر المؤامرات للإيقاع بابن الصباح ، فأوعز أولا إلى رجاله أن يوغروا صدر ابن الصباح حتى يخطئ ، فتكون عند الوزير ذريعة لإلقاء القبض عليه والزج به فى السجن ، ولكن ابن الصباح كان حذراً أشد الحذر من مثل هذه الدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك ضده ، كما أن بعض أصدقائه نصحوه بأن يضاعف حذره ، وأن ينجو بحشاشة نفسه بالهرب من دسائس الوزير « بدر الجمالى » فآثر الحسن بن الصباح السلامة وهرب من مصر بعد أن قضى بها زهاء عام ونصف عام فقط ، لم يقابل إمامه خلالها إلا مرة واحدة فقط ، وفى هذه المقابلة الوحيدة عرف أن

إمامه المستنصر نص على أن يكون ابنه نزار إماماً من بعده .

تنقل الحسن بن الصباح بعد أن ترك مصر فى بلاد الشام والعراق وخوزستان ويزد ، وكان يدعو للمذهب الاسماعيلى فى كل بلد نزل به ، فاستجاب له عدد كبير من الخلق . وكان يفكر طول وقته فى طريقة يخلص بها إمامه المستنصر بالله الفاطمى مما كان يعانيه من تغلب وزيره بدر الجمالى عليه و استئثاره بالسلطة من دونه ، كان ابن الصباح يريد الانتقام لإمامه من هذا الوزير والانتقام لنفسه أيضاً من هذا الرجل الذى كاد له وتآمر عليه حتى اضطره إلى الهروب من مصر ، وهداه تفكيره إلى ضرورة القيام بعمل حاسم سريع وهو تأسيس دولة فى فارس ينتقل إليها الإمام المستنصر بالله ويتخذها مركزاً له وللدعوة الاسماعيلية بدلا من مصر ، فأعد لمشروعه هذا عدته ، ورسم الخطوات التى يجب أن تتبع لتحقيقه ، فأكثر من اجتذاب الجماهير المتعطشة إلى العدل والتى ضاقت بها الحياة من طغيان حكم السلجوقيين الأتراك ، واختار عدداً من الدعاة ذوى المواهب الفذة فى المجادلة وأرسلهم إلى القلاع والحصون التى فى جنوب بحر قزوين ، وتمكن هؤلاء الدعاة من أن يدخلوا عدداً كبيراً من سكان هذه القلاع والحصون فى الدعوة الاسماعيلية ولا سيما طبقة الجند ، وكان ممن استجاب له جنود قلعة آلموت (ومعناها عش العقاب) وهى قلعة منيعة على جبل وحولها وهاد بحيث لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس ،

ولمناعة هذه القلعة ركز ابن الصباح جهوده لامتلاكها ، فاستخدم عنصر الدعوة أولا للوصول إلى هدفه ، فلما نجح دعاته فى تحويل جنود القلعة إلى المذهب الاسماعيلى ، أوعز إلى دعاته أن يوجهوا إليه دعوة لزيارتهم ، فوجهت إليه الدعوة بين مظاهر الفرح ، وذهب ابن الصباح إلى القلعة متنكراً منتحلا اسما غير اسمه ، ولم يعرفه أحد من أتباعه فى القلعة سوى الدعاة فقط ، أما غير الدعاة فكان يتظاهر أمامهم بأنه نائب عن ابن الصباح جاء ليتفقد أحوالهم قبل أن يزورهم ابن الصباح . قضى ابن الصباح عدة أيام فى تنكره هذا وهو يدرس القلعة دراسة دقيقة ويتبين معالمها، ويفحص حصونها وأحوال الناس بها ، فلما عرف كل ما كان يريده أظهر شخصيته ، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له نظير مبلغ معين من المال يتسلمه من حاكم مدينة الدامغان (بجنوبى قزوين) ، وكان حاكم الدامغان ممن دخل المذهب الاسماعيلى سراً وكان يأتمر بأوامر الداعى ابن الصباح سراً بالرغم من أنه كان من عمال السلجوقيين ، فلم يستطع حاكم قلعة آلموت المقاومة عندما علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم أصبحوا طوع إرادة ابن الصباح ، ولذلك سلم القلعة سنة ٤٨٣ ﻫ (١٠٩٠ م) ودعا فيها ابن الصباح باسم المستنصر بالله إمام الاسماعيلية فى مصر ، وبذلك دخلت الاسماعيلية فى فارس فى دور جديد منذ استطاع ابن الصباح أن يستولى على قلعة آلموت ، إذ عمل على توسيع رقعة دولته

الجديدة ، وقد ساعده الحظ إذ مات ملكشاه السلطان السلجوقى عدو الاسماعيلية اللدود بعد الاستيلاء على قلعة آلموت بسنتين ، ومزقت أملاك السلجوقيين من بعده ، فضعفوا وهان أمرهم فى الوقت الذى اشتدت فيه شوكة الاسماعيلية فى فارس ، واستطاع ابن الصباح أن يضم عدة حصون وقلاع إلى دولته ، فحقق بذلك الشطر الأول من حلمه ، وهو تأسيس دولة إسماعيلية فى فارس ، وأراد أن يحقق الشطر الثانى من هذا الحلم وهو استدعاء الإمام المستنصر ليتولى أمور الدولة فى فارس ، ولكن جاءته الأخبار بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ والدعاء فى مصر بإمامة المستعلى بن المستنصر من دون صاحب الحق الشرعى فى الإمامة وهو نزار بن المستنصر ، فثار الحسن بن الصباح وأبى الاعتراف بالمستعلى ، وخطب باسم نزار ، وأرسل بعض الفدائيين إلى مصر لإحضار نزار أو أحد أبنائه إلى آلموت ، ولكن الوزير فى مصر قتل نزاراً وابنه ، واستطاع الفدائيون أن يستصحبوا ابناً آخر لنزار إلى آلموت ، وهناك أخفاه الحسن بن الصباح حتى تأتى فرصة مناسبة يظهره فيها ، وبقتل نزار أصبح الحسن بن الصباح صاحب الأمر فى الدعوة الاسماعيلية الجديدة وهى الدعوة النزارية ، دون أن يدعى الإمامة وإن كان العقل المدبر واليد الفعالة لجميع الحوادث التى كانت تجرى فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر ، اعتذر عن مقابلة الناس وعكف على القراءة والكتابة ، ومن منزله كانت

تخرج الأوامر والرسائل إلى دعاته وإلى الذين اختارهم لتنفيذ سياسته دون أن يقابلهم ، حتى قيل إنه لم يشاهد خارج منزله في آلموت سوى مرتين فقط ، وهنا أذكر أحد أوامره مما كان له أثر كبير في أن تنسج حوله قصص خيالية طريفة ومنها ما ظهر على الشاشة البيضاء ، فقد أصدر ابن الصباح أمراً بأن تزرع سفوح الجبل الذى بأعلاه قلعة آلموت ، فكان منظر الجبل بعد أن كسته الخضرة وأينعت فيه الزهور سبباً في هذه القصة التي رواها الرحالة ماركو بولو البندقي في القرن الثالث عشر الميلادى وهي قصة « جنة شيخ الجبل » . فقد ذهب ماركوبولو إلى أن « شيخ الجبل » — أى الحسن بن الصباح — أنشأ في واد يقع بين جبلين حديقة فيحاء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار الفاكهة ، وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل وزخرفها بنقوش ذهبية ، وجعل في هذه الحديقة أنهاراً من خمر وأخرى من عسل وثالثة من لبن ، وأقام فيها الحور العين والولدان المخلدين ، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص ، وذلك كله لفتنة أتباعه بأن هذه هي الجنة التي وعد الله بها المتقين ، وأن باستطاعة شيخ الجبل أن يدخل جنته هذه من يشاء ، ويحرم منهما من يشاء . ولذلك تفانى في طاعته وامتثال أوامره ، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها إلا طبقة الفدائيين فقط . هذه القصة كانت مثاراً لأحاديث كثيرة عن الحسن بن الصباح وجنته ، كما كانت الملهمة لعدد كبير من

كتاب القصة للكتابة فى هذا الموضوع . وصدق القصة عدد من أعداء الحسن بن الصباح ، ولعل السبب الذى من أجله صدق الناس هذه القصة الخرافية وحاولوا إثبات صحتها لمن شك فيها هو نظام الفدائيين الذى أوجده الحسن بن الصباح لأول مرة فى التاريخ ؛ فنى زيارة الحسن بن الصباح لمصر شاهد فى القصر الصغير الفاطمى عدة حجرات كان يقيم بها شبان أحداث السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية ، جمعهم الإمام الفاطمى فى قصره ليربيهم تربية خاصة حتى يصطنعهم فى حكم دولته بعد أن يبلغوا سن الرجال ، وكان اعتماد الإمام الفاطمى فى الحكم على هؤلاء الذين نشأوا فى قصره تحت رعايته وتعلموا فنون الفروسية والسياسة والدعاية فى القصر الفاطمى على أيدى أخصائيين مهرة فى هذه الفنون بإشراف الإمام نفسه ، رأى ابن الصباح هؤلاء الشبان فأعجبه نظامهم وتربيتهم ، وعرف بذكائه ودهائه كيف يقتبس نفس نظامهم فى تدريب الشباب على أعمال تحقق أهدافه ويستعين بهم فى القضاء على أعدائه ، فلما تم له امتلاك قلعة آلموت جمع إليه طائفة صالحة من الأطفال من أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للاسماعيلية واستعدادهم للتضحية فى سبيل مذهبهم ، وأخذ فى تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يقوله لهم ، ثم بث فيهم حب التضحية فى سبيل العقيدة والإمام ولما اشتد ساعدهم أخذ يدربهم على استعمال الأسلحة المعروفة فى تلك الأيام ولاسيما

الخناجر ، أضف إلى ذلك كله أنه كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم ، بحيث لا يبوح أحد بسره أو سر الجماعة التى ينتمى إليها ، فإذا قبض عليه أحد الأعداء فلا يبوح بكلمة واحدة ، بل يجب عليه أن يقتل نفسه قبل أن يضطر إلى أن يتفوه بكلمة واحدة ؛ وكان ابن الصباح صارما فى تنشئة هؤلاء الأطفال على هذا النحو ، قاسياً عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح فى إعداد طائفة من الفدائيين أفزعوا العالم الإسلامى كله ، وجماعة الصليبيين أيضاً حتى إن الكتاب الغربيين أطلقوا على الاسماعيلية النزارية اسم « السفاكين » لما قام به الفدائيون إبان الحروب الصليبية .

أما المؤرخون من الشرقيين (الفرس والعرب) فأطلقوا على هذه الفرقة عدة أسماء منها « الحشيشيين » ، وقالوا إن السبب فى هذا الاسم أن الحسن بن الصباح كان يخدر الفدائيين بمادة « الحشيشة » وأنه عودهم على تعاطى هذه المادة بحيث جعلهم مدمنين ولا يستطيعون الحياة بدونها ، فكان يطلب منهم القيام بهذه الأعمال الخطيرة نظير حصولهم على الحشيشة ، فإذا نفذوا أوامره أعطاهم الحشيشة وأدخلهم جنته ، وكل هذه الأقوال خرافية قالها أعداؤهم عنهم ، والحقيقة تخالف ذلك مخالفة تامة ، فمن المعروف أن مدمن الحشيشة جبان لا يستطيع أن يقوم بالأعمال الخطيرة التى كان يقوم بها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل

نفسه إذا فشل فى مهمته ، والحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأشياء وأسرار ربما حاول أن يكتمها ، بينما الفدائى الاسماعيلى كان يمتاز بالفطنة والكياسة والدقة التامة فى كل أعماله وتصرفاته ، وتقدير موقفه تقديراً يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان ، وهذا كله لا يتفق مع الإدمان على الحشيشة ، مما جعل الكتاب والمؤرخين المحدثين لا يصدقون قصة الحشيشة كما لم يصدقوا قصة الجنة ، بل كتبوا الفصول الطويلة عن الفدائيين والدور الذى قاموا به ضد السلجوقيين وضد الاسماعيلية الغربية فى مصر ، كانوا يغتالون كل من تحدثه نفسه بعداء الاسماعيلية الشرقية ، ولا سيما الملوك والأمراء والوزراء ، ويقال إن أول من اغتاله الفدائيون هو الوزير السلجوقى نظام الملك — زميل الحسن بن الصباح فى الدراسة — الذى كان يدبر الحملات التأديبية التى كان يشنها السلاجقة ضد الاسماعيلية ، وتوالت ضربات الفدائيين للأمراء السلجوقيين ورجال دولتهم حتى شاع الذعر فى أرجاء البلاد ، وكثر الحديث عن الفدائيين وأعمال البطولة التى يقومون بها ، بل كان الفدائيون من عوامل انتشار نفوذ الإسماعيلية بين الجند والشعب ، وكان الأمير السلجوقى يستعين بالحسن بن الصباح للقضاء على عدو له ، أو يصانع ابن الصباح حتى يسلم بحشاشة نفسه خوفاً من بطشه ، ومع ذلك كله فقد كان بعض أمراء السلجوقيين يبعثون بجيوشهم

لمحاربة الإسماعيلية ، فكانت جيوشهم ترد مدحورة مهزومة حتى اضطر السلطان سنجر السلجوقى إلى مهادنة الاسماعيلية وعقد صلح معهم خوفاً منهم على نفسه بعد أن استيقظ من نومه فى الصباح فوجد خنجراً بجوار فراشه ، الأمر الذى أفزعه ؛ وعلم أنه لا حياة له مع عدائه للإسماعيلية ، ولذلك أرسل وفداً إلى الحسن بن الصباح لعقد صلح معه .

ومما يروى فى هذا الصدد أن وفد السلجوقيين فى المفاوضة عاد إلى السلجوقى وأخذ كل واحد منهم يقص عليه بعض ما أذهله من أمر زعيم الإسماعيلية وطاعة طائفته له ، من ذلك أنه أمر أحد أتباعه أن يغمد خنجراً فى صدره ليقتل نفسه ، فنفذ الفدائى هذا الأمر دون تردد ، وأنه طلب من فدائى آخر أن يلقى بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية ، ففعل الفدائى فى الحال ما أمر به دون خوف ولا وجل ، كل هذا وأمثاله أدخل الرعب فى نفس السلطان السلجوقى فبادر بعقد الصلح حتى يطمئن إلى حياته ، وبعد هذا الصلح ساد الهدوء بعض الشىء بعد أن استمرت الحروب بين الاسماعيلية والسلاجقة زهاء ثلاثين سنة .

أما عن عدائه للاسماعيلية الغربية فى مصر ، فقد ذكرنا أن الحسن ابن الصباح لم ينس أن ينتقم لإمامه نزار الذى قتل بمصر ، لهذا أرسل الفدائيين لقتل الإمام الآمر بن المستعلى الإمام الاسماعيلى فى مصر ، بل كان الحسن بن الصباح ومن جاء بعده من « شيوخ

الجبل » سبباً فى هذه المؤامرات العديدة التى دبرت بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ممـا أضعف الدولة الفاطمية الاسماعيلية إلى أن قوض صلاح الدين يوسف بن أيوب أركانها .

هكذا كان الحسن بن الصباح يعمل على بسط نفوذه ، ونشر دعوته بين قوم يضمرون العداء الشديد لطائفة الاسماعيلية ، وازداد عداؤهم وسخطهم على الاسماعيلية بسبب سياسة الحسن ابن الصباح التى كانت تقوم على الاغتيال وإراقة الدماء . وبجانب هذه السياسة الدموية التى نهجها ابن الصباح نراه قد اتبع سياسة أخرى هى أقرب ما تـكون إلى سياسة الحرب الباردة المعروفة أيامنا هذه ، إذ كان يرسل دعاته لمناظرة ومجادلة أصحاب المذاهب الأخرى أمام الناس ، ودعاة الاسماعيلية عرفوا منذ عهودهم الأولى أنهم أقدر الناس حجة وألسنهم فصاحة وأكثرهم موهبة فى الجدال ، لأنهم مرنوا على ذلك كله ، وأهلوا له حتى أصبحوا ذوى كفاية فى الجدال ، فاستغل الحسن بن الصباح مقدرة دعاته فبعث بهم إلى علماء وفقهاء أهل السنة والشيعة الإمامية والزيدية لمناظرتهم أمام الجماهير ، وكان غرضه من ذلك كله تشكيك الجماهير فيما هم عليه من عقائد مذهبيـة فيسهل بعد ذلك جذبهم إلى مذهبه الاسماعيلى ، ثم السخرية بعلم العلماء والفقهاء وانتقاص قدرهم أمام الناس الذين اعتادوا احترامهم لعلمهم وأخذ أمور دينهم عنهم ، فترتب على ذلك أن قام عدد كبير من علمـاء أهل

السنة والجماعة والشيعة الإمامية والزيدية بوضع كتب خاصة في الطعن على معتقدات الاسماعيلية دون أن يجرأوا على مناظرة دعاة الاسماعيلية ، فالإمام الغزالى وابن رزام وابن نصر الشماس وغيرهم من العلماء لهم كتب فى الطعن على الاسماعيلية ، فاضطر الاسماعيلية إلى وضع كتب فى الرد على هؤلاء العلماء ، والحق أن هذه المجادلات والمناظرات مع الاسماعيلية لم تكن جديدة على عهد ابن الصباح ، بل كانت قديمة عرفها الاسماعيلية ودعاتهم قبل أن يظهر المهدى بالمغرب .

ولكن ابن الصباح استغل هذه التقاليد الاسماعيلية القديمة فى حروبه ضد أعداء مذهبه حرباً هى أقرب شىء إلى ما نراه اليوم بين الدول من حرب باردة قوامها الدعاية والتسابق العلمى . عاش ابن الصباح متصوفاً زاهداً متعبداً ، فكان مثالا للرجل المنصرف إلى العبادة مع ما كان عليه من رغبة فى سفك الدماء وقتل كل من يخالفه ، وامتدت به الحياة وكلها ملوثة بدماء من أمر باغتيالهم ، ويظهر أنه فى أيامه الأخيرة قد بلغ به أمر شراهته لسفك الدماء مبلغاً كبيراً لدرجة أنه قتل ولديه ، وادعى أمام أتباعه أنه قتلهما غيرة على الدين والعقيدة ، ذهب إلى أنه قتل ابنه الأكبر لأنه اشترك مع آخرين فى قتل شيخ مشايخ قوهستان ، وقتل ابنه الثانى لأنه شرب الخمر ، والعقيدة الاسماعيلية تتشدد فى تحريم الخمر كما نص القرآن الكريم ، ثم نرى ابن الصباح يهجر زوجته وينقطع إلى

وحدته ، غير أنه لما وجد أنه ليس له وريث من عقبه يخلفه فى حكم الاسماعيلية استدعى إليه فى آلموت اثنين من أشد الناس إخلاصاً له ولدعوته وهما كيابزرك وأبو على داعى الدعاة فى قزوين ، وجعل وصيته إليهمـا من بعده أن يتولى أحدهما الزعامة الروحية للدعوة ويتولى الثانى الأمور الدنيوية وقيادة الفدائيين ، ففصل بذلك بين قيادة الدين وجعلها لأبى على الداعى ، وبين قيادة الدنيا وجعلها لـكيابزرك . وتوفى الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ وهو فى نحو التسعين من عمره ، صرف منها زهاء سبعين عاما وهو يجد ويكافح فى تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية التى طبعهـا بهذا الطابع الذى عرفت به فى التاريخ ، وجعل لها هذه الشهرة التاريخية عند الشرقيين والغربيين ، واستطاع أن يمتلك عدداً كبيراً من القلاع والحصون فى فارس وأن ينشر دعوته بين عدد كبير من الناس .

كان لموت الحسن بن الصباح صدى بعيد الأثر فى علاقة الاسماعيلية بالسلجوقيين ، الذين كانت تربطهم بابن الصباح معاهدة صلح ، فأراد السلجوقيون أن ينتقموا لأنفسهم من الاسماعيلية بعـد موت زعيمهم ومؤسس دولتهم فى فارس ، وخيل إلى السلجوقيين أنه من السهل عليهم أن يبيدوا الاسماعيلية وأن يقضوا عليها قضاء تاماً ، فبدأوا بحربهم بعد أن جمعوا حولهم الناقمين على الاسماعيلية ، واستمرت الحرب ولـكنها كانت سجالا بين الطائفتين المتحاربتين ، غير أن الاسماعيلية أكثروا من القتل والنهب

وكثرت غاراتهم على القرى والبلدان القريبة من حصونهم وسلب كل ما كانوا يجدونه فى طريقهم حتى ضج الناس منهم ، الأمر الذى أدى بالملك سنجر إلى أن يحاول محاربة الاسماعيلية فى قلعة آلموت نفسها سنة ٥٢١ هـ ، فهاجمهم واستطاع أن يقتل منهم عدداً كبيراً قدر بنحو عشرة آلاف شخص ، ولكنه لم يستطع أن يستولى على القلعة . وانتقم الاسماعيلية لهذه المذبحة انتقاماً مريعاً حقاً ، إذ فتكوا بكل من استطاعوا اغتياله من أعدائهم كباراً وصغاراً ، ومرت السنون وهم يقتلون وينهبون ، حتى امتدت أيديهم بالخناجر إلى الخليفة العباسى فى بغداد فقتلوه ، وفرضوا الضرائب على البلاد التى بجوار قلاعهم ، كما فرضوا الضرائب على قوافل التجارة بحجة حمايتها ، والويل لكل من يرفض لهم طلباً ، فكان مصيره القتل ونهب أمواله ، فأوقعوا الرعب فى نفوس الناس الذين اضطروا إلى الخضوع لأوامرهم وتلبية طلباتهم .

فى ظل هذه الدولة التى أسسها الحسن بن الصباح عاش أئمة الاسماعيلية من نسل نزار بن المستنصر الفاطمى ، هكذا قال الاسماعلية الشرقية ، غير أن هؤلاء الأئمة كانوا فى ستر تام ، فلم يعرف أحد عنهم شيئاً ، ولم يذكر المؤرخون أسماءهم ، بل لم يشر إليهم أحد . وكان الذين يحكمون طائفة الاسماعيلية من آلموت يقولون عن أنفسهم إنهم دعاة الإمام ، ونقرأ عن الحسن

الثانى بن محمد الذى تولى الأمر بآلموت سنة ٥٥٨ هـ أنه يذيع بين الطائفة الاسماعيلية أنه تلقى رسالة من الإمام جاء فيها « إن الحسن ابن محمد بن كيابزرك إنما هو خليفتنا وداعيتنا وحجتنا ، فعلى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه فى الأمور الأخروية والدنيوية وأن يأتمروا بأوامره ، ويعتبروا كلماته من وحى الله وأن لا يخالفوا له أمراً ، بل يتقيدوا بها ويعملوا بها كما لو كانت من لدنا » .

وبعد أن قرئ هذا السجل على الناس بالمسجد ، خطبهم الحسن الثانى وأمرهم بطرح جميع التكاليف الدينية ، والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته » فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه ، وهو الذى يتحمل بدلهم الحساب يوم القيامة ، إن أطاعوه إطاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو . وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية الشرقية فى دور جديد من أدوار عقائد هذه الطائفة وتقاليدها ، وهو دور عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج . . . الخ ، وعدم التقيد بما كان عند الاسماعيلية فى دور الظهور الأول أو فى العصر الفاطمى من الاعتقاد بالظاهر والباطن أى العبادة العملية والعبادة العلمية . وقد قبل الاسماعيلية الشرقية هذه الآراء الجديدة لأن الإمام أمرهم بطاعة الحسن بن محمد بن كيابزرك ، ثم لأن النفس البشرية ترحب دائماً بما يحررها من قيود التقاليد والأحكام دينية كانت

أم غير دينية ، وثالثا لأن الإمام سيتحمل الحساب عنهم يوم القيامة . لهذا رحب الاسماعيلية بهذه الآراء الجديدة التى أذاعها الحسن بن محمد بن كيابزرك سنة ٥٥٨ ه . ثم نرى الحسن هذا يتخذ خطوة أخرى فى ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ ه ، إذ أعلن الحسن هذا نفسه بأنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر بالله الفاطمى ، وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقرونا بقولهم : « على ذكره السلام » وبذلك أصبح حكام آلموت من الحسن الثانى (على ذكره السلام) والذين جاءوا بعده من سلسلة النسب الفاطمية ، فازداد الناس حوله التفافاً ، وفرحاً بظهوره بعد الستر ، وطاعةً له لأنه المسئول عنهم أمام الله . فطاعة الإمام الآن أوجب من أى وقت مضى فى تاريخهم . على أن الحسن الثالث جلال الدين — حفيد الحسن الثانى — الذى تولى الأمر سنة ٦٠٧ ه أمر بإعادة القيام بالفرائض الدينية كما كانت قبل ظهور جده ، وأمر ببناء المساجد وإقامة الآذان للصلاة وقرب إليه الفقهاء والقراء وأغدق عليهم الهدايا والأموال ، بل خطا خطوات أوسع من ذلك ، إذ راسل الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وأرسل إلى السلطان السلجوقى وخوارزم شاه وإلى غيرهما من الملوك والأمراء يؤكد لهم صدق عودته إلى التعاليم الإسلامية والقيام بشعائر الدين وفرائضه ، ففرحت بذلك البلاد الإسلامية ، وأخذ كل ملك يخلع على الحسن الثالث الألقاب ، ومن هذه الألقاب « المسلم الجديد »،

ويظهر أن فرح المسلمين بعودته إلى التعاليم الإسلامية كان له أثره فى نفس الحسن الثالث ، إذ غالى فى إظهار رجوعه إلى الحق فانتهز فرصة زيارة بعض وفود المسلمين له فأحرق أمامهم كتب الحسن ابن الصباح وكتب الاسماعيلية السرية ، وطعن فى الحسن بن الصباح وكل من تولى أمر الاسماعيلية بعده ورماهم جميعا بالكفر والإلحاد ، ثم بعث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج ،وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة المكرمة برسم الفقراء من المسلمين وخاصة للمتصوفة ، وعقد معاهدات الصلح والتحالف مع أعدائه من الملوك ، وبذلك كله اقتنع المسلمون بأنه أعاد الاسماعيلية إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التى مزقتها الفرق المختلفة . ولنا أن نتساءل عن السبب الذى من أجله خالف الحسن الثالث عن رأى أبيه وجده ، هناك رأى يقول إن الحسن الثالث جلال الدين كثيرا ما كان يعلن استنكاره الشديد لسياسية أبيه وجده فى حياة أبيه ، وكثيرا ما قامت المناقشات العنيفة بينه وبين أبيه بسبب العقيدة الدينية ، وأن هذه المناقشات خرجت أحياناً إلى طور السباب وكيل التهم ، حتى إن أباه هم بأن يخلعه عن ولاية العهد فى أخريات أيامه لولا أنه مات قبل أن يتمكن من ذلك ، فلما تولى الحسن الثالث الأمر أعاد الفرائض والشرائع إلى ما كانت عليه . وربما أستطيع أن أضيف إلى هذا الرأى أن الطائفة الاسماعيلية خسرت فى العالم الإسلامى أجمع الهيبة والاحترام ،

فالحكام الذين تولوا أمر الاسماعيلية قبل الحسن الثانى ، سواء أكانوا فى دور الظهور الأول بالمغرب أو فى العصر الفاطمى بالقاهرة أو عصر آلموت ، كانوا يذيعون أنهم يدافعون عن الدين وعن فرائضه ، وكان أعداؤهم يرمونهم بالزيغ عن الدين ، فينبرى الدعاة لدحض هذه الأقاويل ويثبتون للناس أن الأئمة الاسماعيلية إنما يعملون على تثبيت قواعد الدين التى أتى بها جدهم محمد عليه الصلاة والسلام ، أسوة بما فعله أبوهم على بن أبى طالب ، فلما أظهر الحسن الثانى آراءه الجديدة بطرح الفرائض وعدم إقامة الشعائر فطن المسلمون إلى أن الاسماعيلية أدعياء فى دفاعهم عن الدين وأنهم يستحقون لقب الباطنية ، لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ، فأراد جلال الدين أن يستعيد ثقة المسلمين فى الاسماعيلية ، ويتقرب بذلك إلى ملوك المسلمين ليعترفوا به ويخلعوا عليه الألقاب التى تورع أسلافه عنها ، ونستطيع أن نقارن حالة الاسماعيلية الشرقية هذه بجماعة اليسوعيين الذين أحسّوا بغضب البابا ورغبته فى حل منظمتهم ، وشعروا بسخط الحكومات المختلفة على سياستهم ، فاضطروا إلى العودة إلى طاعة البابا والتنكر لآرائهم التى ساروا عليها واتبعوا التقاليد الكاثوليكية فعاد إليهم نفوذهم وهيبتهم . كذلك كان الأمر مع الاسماعيلية الشرقية فى عهد جلال الدين الحسن الثالث . ولكن الحسن الثالث لم يعمر طويلا إذ طعنه أحد الفدائيين الذين رأوه يخرج على تعاليم أبيه

وجده ، وأراد التخلص من آرائه الدينية ، ومن الشرائع التى طلب من أتباعه أن يعودوا إليها بعـد أن تحرروا منها ، ومن مهادنة الخصوم ، ومصانعة الخليفة العباسى ببغداد ، وهى كلها أمور أغضبت بعض أتباعه فتآمروا على قتله ، وبذلك رجع الاسماعيلية الشرقية بعد موته إلى آراء أبيه وجده ، وسار أصحاب آلموت على هذه السياسة فى الناحية الدينية ، وعلى إيفاد الفدائيين إلى الأمراء والملوك لاغتيالهم ؛ حتى ظهرت جيوش المغول فى آسيا واجتاحت القلاع والحصون التى فى طريقها ، وكانت قلاع الاسماعيلية ممـا اجتاحته جيوش المغول . وفى سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٤ م) خرج هولاكو بجيشه لغزو حصون الاسماعيلية ، وأرسل إلى ملوك المسلمين المجاورين لقلاع الاسماعيلية سجلا جاء فيه :

« نحن إنمـا حضرنا بأمر الخان لندكّ حصون الملاحدة ، فإذا رأيتم أن تحضروا بأنفسـكم إلينا ، وتلحقوا عساكركم بعساكرنا ، فإنا سنحفظ عليـكم بلادكم ، وسنعوض عليـكم معاونتـكم هذه بالإنعامات الملـكية ، أما إذا ترددتم وتمنعتم فإنى سأنقض عليـكم فور انتهائى من أمر هـذه الطائفة الضالة الاسماعيلية » . ومن الطبيعى أن يستجيب ملوك المسلمين المجاورين للاسماعيلية لنداء هولاكو إما خوفاً من بطشه وتهديداته وإنما رغبة منهم للتخلص من الفدائيين الاسماعيلية ، وهكذا سارت

جموع المغول ومعهم جيوش من المسلمين لمحاربة الاسماعيلية في حصونهم ، وسرعان ما أذعن ركن الدين خورشاه إمام الاسماعيلية للقائد هولاكو الذي دخل قلعة آلموت سنة ٦٥٤ هـ ، كما استولى على جميع قلاع وحصون الاسماعيلية ، وكانت تبلغ الأربعين حصناً ، دكت كلها إلى الأرض بعد أن هرب منها سكانها تاركين خزائنهم وكنوزهم نهباً لجيش هولاكو المغولي ، ثم أخذ المغول بعد ذلك في تتبع الاسماعيلية فكانوا يقتلون كل اسماعيلي يقابلونه ، حتى لم ينج من الاسماعيلية سوى الأطفال ، وشردوا في البلاد مصطنعين التقية والستر خيفة الوقوع في أيدي المغول وحفظاً على حياتهم ، وقتل ركن الدين خورشاه آخر الأئمة الاسماعيلية النزارية في آلموت ، ولكنه قبل مقتله استطاع أن يخفي ابنه شمس الدين محمد فهرب هذا متنكراً ، إلى جهة ما بجنوب القوقاز حيث عاش هو وخلفاؤه مستترين متنكرين على هيئة تجار وأصحاب أراضي زراعية ، ثم انتقلوا من مكانهم إلى قرية كبيرة اسمها « انجودا » وهي تقع على الطريق القديم الذي يصل بين إصفهان وهمدان ، أي على بعد حوالي عشرين ميلا من مدينة أراك الحالية ، وهناك في هذه القرية قضى شمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه بقية حياته إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة .

وقد واجهت الطائفة الاسماعيلية الشرقية أزمة عنيفة بسبب النزاع على تولي الإمامة بعد شمس الدين محمد ، ففريق من الاسماعيلية

المشردين نادوا بإمامة محمد شاه ، واعترفوا به وإمامة الأئمة من نسله حتى انقطعت سلسلة الأئمة من نسله فى منتصف القرن العاشر الهجرى .

وآخر إمام من أئمة هذا الفرع هو طاهر شاه الثالث المعروف بالدكنى الذى هاجر إلى الهند وتوفى هناك حوالى سنة ٩٥٠ هـ ، وبموته انقطع هذا الفرع بالرغم من وجود أتباع له إلى الآن ، وخاصة فى مصياف والقدموس بسورية ، وهم أى اسماعيلية مصياف والقدموس الآن فى حيرة من أمر الإمام الذى يتبعونه من نسل طاهر شاه دكنى هذا ، وأرى من الحق علىّ أن أذكر أن اسماعيلية مصياف والقدموس لا يفترقون عن إخوانهم المسلمين فى جميع بلاد العالم فى شىء ، فهم يتسابقون فى إقامة فرائض الدين وشعائره أسوة بإخوانهم المسلمين ، ويحفظون القرآن الكريم ويعملون بهديه ، ويقتدون بسنة الرسول الكريم ويحفظون أحاديثه ، بل هم متعصبون للإسلام والعروبة ولا خلاف بينهم وبين أهل السنة إلا أنهم يسمون أنفسهم الاسماعيلية .

أما الفرع الثانى من الطائفة الاسماعيلية الشرقية فقد اعتقدوا إمامة قاسم شاه ، وهؤلاء هم العدد الأكبر من هذه الطائفة . وهنا يجب أن أشير إلى أن الاسماعيلية الشرقية اضطرت إلى الهجرة من حصونها وقلاعها ، اضطراراً أمام ما حل بهم من أهوال ومذابح على نحو ما ذكرناه ، وكانت هذه الهجرة إلى إقليم

بادخشان (أعالى نهر جيحون) وإلى الهند على وجه الخصوص .
والهند كانت دائماً مأوى اللاجئين من الفرس ، لجأ إليها عدد من الزردشتيين عندما قامت جيوش العرب باجتياح بلاد فارس ، وكون الزردشتيون فى الهند جالية لا تزال إلى يومنا هذا يحافظون على تقاليدهم وشعائرهم الدينية ، وهم يعرفون الآن بالبارسيين .
وهذا ما حدث أيضاً للاسماعيلية الشرقية عندما وقعت أملاكهم فريسة فى أيدى المغول وخافوا على أنفسهم القتل فاتجهوا إلى الهجرة إلى الهند ، وفى الهند كان يوجد عدد من الاسماعيلية ، اعتنقوا المذهب على أيدى دعاة اليمن ، واستطاعوا أن يؤسسوا لأنفسهم جاليات اسماعيلية اتخذت مدينة مُلْتان مركزاً لها ، وكان لاسماعيلية الهند شىء من السيطرة على إقليم السند كله ، وظلوا كذلك مدة طويلة دون أن يكونوا لأنفسهم دولة أو إمارة هناك ، بل اكتفوا بما لهم من نفوذ وتأثير على ملوك الإقليم وأمرائه وما لهم من سيطرة اقتصادية فى البلاد ، حتى قام محمد الغورى بجيش قوامه من الأفغانيين والأتراك بغزو بلاد الهند ، فانتصر على أمراء راجبوت فى موقعة ثانيسار سنة ٥٧١ هـ وامتدت فتوحاته إلى أن احتل أجمير ودلهى وبنارس ، فخضع له وادى نهر الكنج كله حتى إقليم البنغال ، وأسس فى الهند حكما إسلامياً ونشر الدين الإسلامى فى الهند ، كانت هذه الفتوحات الغورية فى الهند ذات أثر كبير على الاسماعيلية هناك ، إذ قام

الغورى بالبحث عن الاسماعيلية وقتلهم ، فاضطر الاسماعيلية إلى التقية وشردوا داخل بلاد الهنـد الواسعة ، وتنكروا فى زى الهندوكيين ، وبعد هذه المذبحة بمائة عام تقريباً ، وفدت على الهند موجات الاسماعيلية المهاجرين الذين فروا من المغول ، وبطبيعة الحال اتصل زعماء المهاجرين بالاسماعيلية فى الهند الذين كانوا متأثرين بالعقائد والتقاليد الهندوكية ، فـكان من نتيجة هذا الاتصال أن كوّن الاسماعيلية الشرقية فى الهند عقائد جديدة هى مزيج من عقائد الاسماعيلية والعقائد الهندوكية والتصوف الفارسى والهندى . وهنا يجب أن أشير إلى حقيقة هامة . وهى أن عدداً كبيراً من شيوخ المتصوفة فى فارس والهنـد الذين يطلق عليهم لقب (پير) كانوا مستقلين استقلالا ذاتياً — إن صح هذا التعبير — لـكل منهم منهجة وطريقته الصوفية ، ومع ذلك كله كانوا متأثرين جميعاً تأثراً تاما بعقائد الاسماعيلية ، بل منهم من كان تحت سلطان الأئمة الاسماعيلية ، وحدث أن انشق فريق من هؤلاء المتصوفة الاسماعيلية بزعامة إمام شاه فى بداية القرن العـاشر الهجرى ، وكونوا طائفة جديدة لا تزال تعرف إلى اليوم باسم طائفة الساتبانث أى طائفة طريق الحور ، ولا يزال أتباع هذه الطائفة يعيشون إلى اليوم فى ولاية جوجرات وفى خندش بالهند، وهم يذهبون إلى أن شمس التبريزى وجلال الدين الرومى الصوفيين المعروفين كانا من زعماء مذهبهم ولذلك يرددون أشعارهما بعد أن

ترجمت إلى اللغة الجوجزاتية . أما بقية الاسماعيلية الشرقية فى الهند فاستمروا على ولائهم لإمامة الأئمة من نسل قاسم شاه ، وتفرقوا فى أنحاء الهند ، ولم يبق فى ملتان والمدن التى تجاورها سوى عدد قليل احترفوا صياغة الذهب ومهروا فى هذه الصناعة حتى عرفوا « بالسنار » أى الصاغة .

أما فى أقاليم الهند الأخرى فقد اشتغل الاسماعيلية الشرقية بالتجارة مثل الاسماعلية البهرة ، ولذلك تفرقوا فى المراكز التجارية الهامة فى آسيا ومنها إلى إفريقية الشرقية والجنوبية ، ولا سيما فى عهد إمامهم محمد الحسينى أغا خان المتوفى فى أغسطس سنة ١٩٥٧ م الذى سنتحدث عنه فى فصل خاص .

حكام وأئمة الاسماعيلية الشرقية فى آلموت

١ — الحسن بن الصباح : توفى سنة ١١٢٤ م .

٢ — كيابزرك أميد : توفى سنة ١١٣٨ م .

٣ — محمد بن كيابزرك أميد : توفى سنة ١١٦٢ م .

٤ — الحسن الثانى بن محمد : توفى سنة ١١٦٦ م .

٥ — محمد الثانى بن الحسن الثانى : توفى سنة ١٢١٠ م.

٦ — الحسن الثالث بن محمد الثانى : توفى سنة ١٢٢١ م .

٧ — محمد الثالث بن الحسن الثالث : توفى سنة ١٢٥٥م .

٨ — ركن الدين خورشاه : توفى سنة ١٢٥٥ م .

الفصل الخامس

الاسماعيلية النزارية فى الشام

فى حديثنا عن دور الستر ذكرنا أن الأئمة الاسماعيلية اتخذوا مدينة سلمية بجوار حمص ببلاد الشام مركزاً لدعوتهم السرية ومقراً لمقامهم ، ومنها كانوا يبعثون الدعاة إلى مختلف البلاد . ومعنى هذا أن بلاد الشام عرفت الدعوة الاسماعيلية فى وقت مبكر إذا قيست بالبلدان الأخرى ، وفى الشام كانت حركات بعض القرامطة الذين كانوا من الاسماعيلية ثم خرجوا عليهم وحاربوهم ، فاضطر المهدى بالله صاحب دور الظهور إلى الهروب من بلاد الشام ، ولما ملك الاسماعيلية (الفاطميون) مصر أرسلوا جيوشهم إلى بلاد الشام واستطاعوا الاستيلاء على جزء كبير منها ونشروا هناك الدعوة الاسماعيلية ، فأصبح للأئمة الاسماعيلية الفاطميين أتباع ومستجيبون فى الشام ، وقد ذكرنا أن دعاة تأليه الحاكم بأمر الله استطاعوا تحويل بعض القبائل التى كانت تدين بعقيدة الاسماعيلية إلى عقيدة التأليه وهم المعروفون بالدروز . وعلى إثر فرار الحسن بن الصباح من مصر إلى بلاد فارس مر ببلاد الشام وأقام مدة فى مدينة حلب حيث دعا إلى المذهب الاسماعيلى ، وأخذت الآراء

والعقائد الاسماعيلية تقوى وتنتشر فى بلاد الشام كلما واتت للاسماعيلية فرصة لذلك ، أو كانت تضعف أمام قوة الأمراء والحكام وخاصة أيام سلاجقة العراق والشام ، ثم ظهرت حركة الصليبيين ونجحت هذه الحركة فى تأسيس إمارات صليبية فى بلاد الشام . ويرجع العامل الأول فى نجاح الصليبيين إلى الخلاف الذى كان بين أمراء المسلمين وعدم وقوفهم جبهة واحدة أمام الخطر الصليبى .

كانت بلاد الشام منقسمة إلى إمارات صغيرة متنازعة فيما بينها متشاحنة متباغضة بسبب مطامع الأمراء وأحقادهم ، الأمر الذى سهل على الصليبيين المستعمرين أن ينالوا النصر تلو النصر فى سهولة ويسر ، حتى أشيع أن الصليبيين لا يقهرون ، فخافهم الأمراء ، بل استعان بهم بعض الأمراء المسلمين ضد أعدائهم .

كان الأمير رضوان أميراً على حلب ، وكان أخوه دقاق أميراً على دمشق وصهره (زوج ابنته) جناح الدولة أميراً على حمص ، وكانوا جميعاً ولاة من قبل السلجوقيين ، وحدث أن وفد على حلب شخص يعرف بالحكيم المنجم أسعد ، استطاع فى شىء من الدهاء أن يتصل بالأمير رضوان وأن يستحوذ لبه ويسطر عليه ، بحيث أصبح رضوان ألعوبة بين يديه ، ووسوس الحكيم المنجم أسعد إلى الأمير رضوان بأن أخاه وصهره يأتمران به ، وأنهما يجمعان الجيوش لانتزاع حلب منه ، وزين له أن يستمد لملاقاة جموعهما ووعده

الحكيم بمساعدة الاسماعيليه ، وفعلا أرسل دعاة الإسماعيلية بالشام إلى الأمير رضوان يعدونه بكل مساعدة ممكنة ولقبوه بالسلطان ، فغرّه ذلك منهم ، وربما ظن أنهم سيولونه الإمارة عليهم ، ولذلك بادر رضوان عملا بنصيحة الحكيم المنجم أسعد إلى بناء مسجد خاص بالاسماعيلية فى حلب بعد أن كانوا يعيشون فيها فى ذعر وخوف من بطش السلاجقة ، وكثيراً ما أظهروا التقية سترا على أنفسهم ، فلما رأى الإسماعيلية أن الأمير رضوان يحميهم أظهروا أنفسهم وخرجوا من سترهم وأصبح لهم عليه دالة خاصة ، ولاسيما بعد أن اتضح أن عدداً كبيراً منهم كانوا يعملون فى بلاط الأمير دون أن تُعرف إسماعيليتهم . ولما قوى نفوذ الاسماعيلية فى حلب على هذا النحو وفد إليها من فارس جماعات عديدة من الاسماعيلية الذين فروا من السلجوقيين ، حتى زاد عدد الاسماعيلية فى حلب وازدادوا قوة ، حتى إن المؤرخ ابن الفرات قال : « وكثروا وصار لهم فى حلب دار دعوة وعظم شأنهم ، وصار كل من يجنى جناية منهم منعوه وحرسوه وكاتبوا الملوك فى أمره حتى يخلصوه ، فكثر بذلك أتباعهم واشتهرو أمرهم واشتدت شوكتهم ، وصار الرجل منهم يلقى الرجل من غيرهم فينزع عنه ثيابه ولا يقدر على الامتناع منه ولا يجد ناصراً ، ويلقى أحدهم المرأة والصبي فى الطريق فيقبض عليه ويذهب به أنى شاء ولا يقدر أحد على استخلاصه » . ومهما يكن من مبالغة المؤرخ

ابن الفرات فى وصف ما كان يأتيه الاسماعيلية فى حلب فيكفى أن نعرف أنهم كثروا فى حلب ، كما انضم إليهم خلق من جبل السماق ومعرة النعمان والبقاع المجاورة ، ومع هذه الجموع الاسماعيلية التى أظهرت استعدادها لمساعدة رضوان ضد أخيه دقاق وصهره جناح الدولة فإن جيش رضوان منى بالهزيمة وهرب رضوان كما هرب الحكيم المنجم أسعد ، فانتقم الاسماعيلية لهذه الهزيمة بأن اغتالوا جناح الدولة بالمسجد الجامع سنة ٤٩٦ هـ ، فكان أول ضحية للفدائيين الاسماعيلية فى بلاد الشام ، وعاد رضوان إلى حلب والناس فى سخط عليه ، حتى إن قاضى المدينة أغلظ له القول لحمايته للاسماعيلية واعتماده عليهم ، فكان جزاء القاضى أن اغتاله الاسماعيلية دون أن يستطيع أحد أن يمسك بالقاتل .

ثم وفد على بلاط رضوان بحلب أبو طاهر الفارس سفيرا من قبل شيخ الجبل بآلموت ، فتجمع حوله إسماعيلية المدينة ، ويظهر أنه كان مكلفا للقيام بعمل ما ، إذ ظل هذا الداعى يترقب الفرصة الملائمة ليقوم بأداء مهمته فى الشام ، ولا سيما فى هذا الوقت الذى كان فيه الصليبيون يهددون الإدارات الإسلامية ، ويخضعون لهم البلد تلو الآخر ويفرضون على الأمراء المسلمين الأتاوات ، أخذ أبو طاهر الفارس يراقب الأحداث عن كثب إلى أن انتهز فرصة انتزع فيها حصن فاميه من أيدى الصليبيين سنة ٥٠٠ هـ . وجعل عليه الداعى أبا الفتح الذى كان يتولى أيضا

حصن سرمين بجوار حلب ، ولـكن فى سنة ٥٠٤ هـ استطاع الصليبيون أن يستميدوا حصن فاميه وقتلوا واليها أبا الفتح الداعى وبعض رجاله ، وخاف الداعى أبو طاهر الفارسى فهرب من حلب إلى آلموت استعداداً لتدبير مخاطرات أخرى يقوم بها الاسماعيلية فى الشام . سمع الأمير رضوان بهزيمة الاسماعيلية أمام الصليبيين ، وكان يدرك مدى سخط الناس عليه لمالأتهم ومشاركتهم فى القتل والاغتيال ، فتشجع بعد هزيمتهم وأراد أن يظهر براءته منهم ، فعمد إلى قتل عدد كبير منهم ، وطرد من حلب عدد آخر ، ولـكنه ظل يستخدمهم فى أغراضه ويستعين بهم فى أموره على نحو ما حدثنا به المؤرخ ابن الفرات ، ثم بلغ رضوان أن الاسماعيلية يريدون اغتياله وانتزاع قلعة حلب من يديه ، فأدرك خطرهم وبدأ فى اضطهادهم ولـكنه توفى سنة ٥٠٧ هـ . فـكان موته ابتداء مذابح عديدة قاسية ذهبت فيها أرواح عدد كبير من الاسماعيلية ، منهم أبو الفتح بن أبى طاهر الفارسى الذى قتلته الجماهير ومثلوا بجثته أشنع تمثيل وطافوا برأسه فى المدينة ، وهرب الداعى ابن دملج إلى الرقة حيث وافته منيته ، وفر الداعى ابراهيم إلى قلعة شيزر ، وأخذ أهالى حلب بالمحنة ، فمن كان اسماعيليا قتل حتى اضطر عدد منهم إلى الخروج من البلد ، وكثرت الوشايات بينهم حتى لم يبق فى حلب اسماعيلى واحد يظهر مذهبه . وقد انتقم الاسماعيلية من ابن بديع الذى كان ينوب فى الحـكم فى حلب .

كان أكثر اسماعيلية حلب الذين هربوا فى هذه المحنة يلتجئون إلى شيزر حيث هرب الداعى ابراهيم ، ويظهر أنهم بعد تجمعهم فى شيزر أرادوا الاستيلاء على قلعتها غير أنهم فشلوا فطردوا من المدينة بعد أن قتل منهم عدد كبير ، وعاد بعضهم إلى حلب بزعامة الداعى أبى محمد الذى كانت تربطه بالأمير ايلغازى صاحب ماردين لون من ألوان الصداقة ، فأرسل الداعى إلى صديقه يطلب منه السماح للاسماعيلية بالنزول فى قلعة الشريق ، فسمح لهم بذلك ، ثم استعاد الاسماعيلية قوتهم ، وأخذت فرق الفدائيين تقوم بما عهد إليها من قتل واغتيال على نطاق واسع ، ففى سنة ٥٢٠ هـ اغتيل قسيم الدولة آق سنقر صاحب الموصل وهو فى المسجد الجامع ، وزادت قوة الاسماعيلية فى الشام حينما وفد عليها الداعى بهرام الاسترابادى الفارسى واستطاع أن يتصل بالأمير طغتكين صاحب دمشق ، وأن يتفق مع هذا الأمير على أن يتنازل للاسماعيلية عن قلعة بانياس (جنوب غربى دمشق) وبذلك تحقق حلم الاسماعيلية فى الشام بامتلاك قلعة منيعة يثبون منها إلى غيرها من القلاع والحصون ، فى قلعة بانياس استطاع بهرام أن يجهر بدعوته الاسماعيلية النزارية ، وأن يأخذ العهد على المستجيبين الذين كثروا حوله ، وحاول أن يتوسع فى امتلاك القرى والبلاد المجاورة له ، غير أن الدروز باغتوا الاسماعيلية سنة ٥٣٢ هـ للأخذ بثأر أحد الدروز قتله الاسماعيلية ، ففر عدد من الاسماعيلية أمام

الدروز وقتل الداعى بهرام بعد أن عهد إلى الداعى اسماعيل الفارسى ليتولى شئون الطائفة من بعده فى قلعة بانياس ، وكان إسماعيل الفارسى داهية فى سياسته ، ذا قدرة فائقة للتأثير على الناس ، فانقاد له عدد كبير منهم ، واستطاع بلباقته أن يتحبب إلى الأمراء ورجال الحكم فاستجابوا لمطالبه ، وكان المردغانى وزير دمشق أحد الذين خضعوا لسيطرة الداعى الإسماعيلى ، حتى إن هذا الداعى استطاع أن يولى أحد أتباعه ، وهو الداعى أبو الوفاء — وظيفة قاضى قضاة دمشق ، ولم تكن تولية أبى الوفاء على قضاء دمشق إلا حلقة من سلسلة تدبيرات خاصة للوصول إلى فرض سلطان الاسماعيلية فى دمشق وفى غيرها من البلاد ، ولو تم ذلك بمحالفة الصليبيين ، ضد السلجوقيين ، فيحدثنا المؤرخون أمثال ابن القلانسى وابن الفرات وابن الأثير وأبى الفداء ، أن أبا الوفاء هذا بعث سراً إلى بودان الثانى ملك بيت المقدس يفاوضه فى تسليم دمشق إلى الصليبيين مقابل أن يستولى الاسماعيلية على مدينة صور ، وقبل ملك بيت المقدس ذلك على أن يكون تسليم دمشق فى يوم الجمعة إذ يكون الأمير بورى بن طغتكين صاحب دمشق وحاشيته يؤدون الصلاة ، فينتهز قاضى القضاة هذه الفرصة فيفتح أبواب دمشق للصليبيين بعد أن يسد جميع منافذ البلد . غير أن الأمير بورى فطن إلى هذه المؤامرة ، فأسرع إلى قتل وزيره المردغانى ، وتتبع الاسماعيلية فى دمشق ، فذبح منهم حوالى ستمائة

شخص ، وجاء الصليبيون بجيش كثيف لأخذ المدينة ولكن الله ردهم عنها ، فعادوا أدراجهم سنة ٥٢٤ هـ ، ومن الطريف أن الصليبين الذين لم يستطيعوا الاستيلاء على دمشق تنفيذاً لمؤامراتهم على الاسماعيلية ، عرجوا فى عودتهم على قلعة بانياس التى كانت فى أيدى الاسماعيلية واستولوا عليها ، ولم يستردها الاسماعيلية ثانية إلا سنة ٥٢٧ هـ ، وبعد ذلك بقليل اشترى الاسماعيلية حصن قدموس ، وبعد ثمان سنوات استولوا على حصن مصياف ، وما زالوا يشترون الحصون أو يستولون عليها حتى بلغ عدد حصونهم الرئيسية فى الشام فى القرن السابع للهجرة ثمانية حصون هى القدموس ومصياف وبانياس والكهف والخوابى والمنيقة والقليقة والرصافة، وبجانب هذه الحصون الرئيسية الثمانية امتلكوا قلاعا وحصونا أقل أهمية من هذه الحصون الرئيسية، مما يدل على أن الاسماعيلية استطاعوا برغم ما أصابهم من اضطهاد وتقتيل وتشريد أن يؤسسوا لهم إمارات فى بلاد الشام ، وازدادت قوة الاسماعيلية بالشام بظهور شخصية فذة وداعية داهية فى سياسته وفى مواهبه وحكمته وهو « راشد الدين سنان » الذى استطاع بمقدرته وكفايته أن يجمع كل إسماعيلية الشام حوله ، وأن يجعل منهم قوة متحدة لهم نفوذ وسلطان مثل ما فعله الحسن بن الصباح فى فارس ، بل جعل لنفسه مذهباً جديداً دعا إليه غير ما كان عليه إسماعيلية الشام من قبل ، فقد كان الاسماعيلية فى الشام يدينون بإمامة أصحاب

قلعة آلموت فى فارس ، فجاء سنان وكوّن مذهب « السنانية » واعترفوا بإمامته ، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بآلموت ، وبالرغم من تحولهم هذا فإن اسماعيلية الشام إلى الآن يذكرون الإمام راشـد الدين على أنه أعظم شخصياتهم على الإطلاق .

راشد الدين سنان :

عرفه جمهور أهل الشام بلقب « شيخ الجبل » إمعاناً فى احترامه ورهبة منه فى الوقت نفسه ، هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد ، ولد فى قرية صغيرة من قرى البصرة ، ويقال إن سكان هذه القرية كانوا على مذهب النصيرية الذين يؤلهون على بن أبى طالب ، ولـكن أسرة سنان لم تـكن على هذه العقيدة ، بل كانت على مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، ولما شب تحول هو إلى مذهب الاسماعيلية على يد داعى دعاة العراق ، الذى لمس فيه مخائل النجابة والذكاء فحبب إليه الرحيل إلى آلموت ليتلقى هناك علوم الدعوة الاسماعيلية ، وكان صاحب آلموت إذ ذاك هو محمد بن كيابزرك أميد الذى أحسن استقبال سنان وجعله مع ولديه فى طلب العلم ، بل اتخذه ربيباً له بعد ذلك بقليل . فتوطدت صلة سنان بولى العهد الحسن بن محمد ، فلمـا تولى الحسن (على ذكره السلام) أمور الطائفة بآلموت أمر سناناً بالرحيل إلى الشام

ليشرف بنفسه على شئون الطائفة ، وليبث الآراء الجديدة التى نادى بها الحسن وطلب من الاسماعيلية اتباعها ، ويخيل إلى أن الحسن (على ذكره السلام) كان يخشى ثورة اسماعيلية الشام ضد هذه الآراء والتعاليم الجديدة ، فأوفد إليهم الرجل الذى يركن إليه أكثر من أى شخص آخر لما لمسه من خصاله وذكائه .

وفد سنان إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ فى زى الفقراء الصوفية حتى لا يعرفه أحد ، وكان وهو فى طريقه إلى الشام يتجنب المرور بالمدن الكبرى أو السير فى الطرق المسلوكة خوفاً من أن يكتشف شخصيته أحد ، فأعاد إلينا ذكر رحلة الداعى الشهير المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عند ما هرب من العباسيين إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ . ووصل سنان إلى حلب ولكنه لم يستطع أن يمكث بها ، فغادرها إلى مكان آخر يأمن فيه على نفسه ويستطيع فيه أن يؤدى مهمته ، فسار إلى قلعة الكهف واتخذها مقراً له ، وهناك واصل قراءة كتب العقائد والفلسفة التى شغف بها شغفاً عظيما ، وفى نفس الوقت كان يدرس أحوال طائفته وأحوال غيرهم من المسلمين فى الشام وما كان من أمر جموع الصليبيين . ولا سيما فى هذه السنوات التى ظهر فيها نور الدين محمود زنكى صاحب حلب . وحاول سنان أن يوحد الإمارات المتشاحنة المتباغضة فى الشام ليواجه بجموعهم المتحدة قوى الصليبيين وقوى الاسماعيلية فى الوقت نفسه ، وفى شمال سورية حيث الجبال كانت تسكن بعض

الطوائف وخاصة طائفة النصيرية ، وهى كلها طوائف تكره الاسماعيلية وتنتهز الفرصة للاشتباك معهم ، لذلك كله لم يشأ سنان أن يقوم بأى عمل فى الشام قبل أن يدرس ويفكر ، وطال به الدرس والتفكير إلى أن اتضح له الرأى الذى سيسير على هديه ، نراه ينتقل من قلعة الكهف إلى قلعة مصياف ويتخذها قاعدة له ، وضاعف تحصيناتها وزودها بالسلاح والعتاد ، وأرسل إليه نور الدين زنكى الجيوش تلو الجيوش لمحاربته دون أن يحصل على انتصار ما ، حتى عزم نور الدين على السير بنفسه على رأس جيش لمحاربة سنان ، غير أنه توفى قبل أن يحقق ما رمى إليه ، وترك حلب وما والاها من البلدان إلى ولده الصالح إسماعيل الذى كان صغير السن لا يعدو الثانية عشرة من عمره ، وجاء صلاح الدين يوسف بن أيوب وأراد أن ينهج سياسة أستاذه نور الدين فى الإمارات الشامية فسار إلى حلب ، فاضطر صاحب حلب إلى أن يستعين بعدوه سنان الذى أسرع إلى تلبية ندائه وحاول الفدائيون الاسماعيلية أن يغتالوا صلاح الدين ولكنه نجا من خناجرهم مرتين ، ويقول ابن خلكان إن صلاح الدين أرسل إلى سنان يتوعده ويهدده ، وأن سنانا أجاب على كتب صلاح الدين بما ننقله هنا بنصه لطرافته ، فقد بدأ سنان رسالته بالشعر لأنه كان ممن يحبون قرض الشعر ؛ فهو يقول فى هذه الرسالة :

يا للرجال من أمر هال مفظعه ... ما مر قط على سمعي توقعه
يا ذا الذى بقراع السيف هددنا ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازى يهدده ... واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ما قد تلاقى منه أصبعه
إنا منحناك ثوباً للحياة فإن ... كنت الشكور وإلا سوف نخلعه

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيالله العجب من ذبابة تطن فى أذن فيل ، وبعوضة تعض فى التماثيل ، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون « فدمرناها عليهم وما كان لهم من ناصرين » ، أوَللحق تدحضون وَللباطل تنصرون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، وأما ما صدر من قولك فى قطع رأسى ، وقلعك لقلاعى من الجبال الرواسى ، فتلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ، كم بين قوى وضعيف ودنىء وشريف ، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله وسلم فى قوله « ما أوذى نبي ما أوذيت » ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال

والأمر ما زال ، ولله الحمد فى الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون ، وإذا جاء الحق زهق الباطل « إن الباطل كان زهوقا » . ولقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويتقربون به إلى حياض الموت . « قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ، وفى أمثال العامة السائرة (أو للبط تهددون بالشط) فهيئ للبلايا جلباباً وتدرع للرزايا أثواباً ، فلأظهرن عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع ما رن أنفه بكفه ، وما ذلك على الله بعزيز . فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، ومن حالك على اقتصاد ، واقرأ أول النحل وآخر صاد » .

وعلى هذا النحو كثرت خطابات التهديد من الجانبين ، وأراد صلاح الدين أن يحارب سناناً فجرد جيشاً كثيفاً حاصر به قلعة مصياف ، ولكنه رجع عنها دون أن يفتحها ، وذلك لأن أحد عمومته طلب منه عدم التعرض للاسماعيلية حتى يتفرغ لحرب الصليبيين . ويقال إن صلاح الدين استيقظ ذات صباح وهو فى معسكره فوجد خنجراً على فراشه ومعه بطاقة من سنان تدل على أن سناناً نفسه هو الذى زاره ووضع له الخنجر ، ولو شاء لقتل صلاح الدين دون أن يشعر به أحد . ويذهب أحد دعاة الاسماعيلية الذين عاصروا هذه الأحداث إلى أن صلاح الدين وسناناً صارا

صديقين حميمين ، وأنهما اتفقا سوياً على العمل ضد الصليبيين ، ولذلك أرسل شيخ الجبل راشد الدين سنان الفدائيين لقتل المركيز كونراد المونفراتى سنة ٥٨٨ هـ ، لأنه وجد صديقه صلاح الدين فى مسيس الحاجة إلى المساعدة ، وحفظ صلاح الدين هذه اليد لصديقه فلما قبل عقد الصلح مع الصليبيين جعل للاسماعيلية بنداً خاصاً فى شروط الصلح وهو عدم التعرض لقلاعهم وأملاكهم ، فكان اتفاق الاسماعيلية مع أهل السنة من أسباب انتصارات العرب على الصليبيين فى حروب صلاح الدين الأيوبى ، ويقول الاسماعيلية فى الشام إن سناناً لم يشأ أن يقتل صلاح الدين لأنه كان يعلم من قران الكواكب (التنجيم) أنه يموت فى نفس السنة التى يموت فيها صلاح الدين ، ومن عجب أن يتحقق ذلك .

لعل أهم عمل قام به راشد الدين سنان هو أنه استطاع أن يجمع كل اسماعيلية الشام تحت قيادته ، وأن يجعل منهم قوة وقفت أمام كل من حاول الاعتداء عليهم ، ثم أنه نشر آراء تعاليم الحسن (على ذكره السلام) وأضاف إليها آراء جديدة من عنده ، هى آراء قريبة من آراء النصيرية ، ومن ذلك القول بالتناسخ ، وهى عقيدة لم يقل بها الاسماعيلية من قبل بل نجد فى كتب دعاة الاسماعيلية القدماء تهكما بالتناسخ وسخرية من القائلين بهذه المقالة ، ولكن سنانا كان يعيش فى صغره فى بيئة تقول بالتناسخ ، فرسخ فى مخليته ما كان يسمعه عن هذه الآراء

ولم يستطع أن ينزع هذه الآراء من مخيلته ، بل قال بها بعد أن أصبح رئيس طائفته وأذاعها بين أتباعه . ومن هنا جاء رأى الاسماعيلية بأن سنانا هو ابن أحد الأئمة الذين كانوا مستترين فى آلموت . وذهب بعضهم إلى أنه هو الإمام نفسه ، وقد خص بالصفات التى خلعها الأئمة الاسماعيلية على أنفسهم منذ ظهور طائفة الاسماعيلية ، حتى إن المستشرق الفرنسى جويار توهم أنه نادى بالألوهية متأثراً فى ذلك بالآراء النصيرية ، وللمستشرق جويار كما لغيره من الذين تعرضوا للكتابة عن الاسماعيلية عذرهم فى عدم فهم معنى أو تأويل هذه الصفات ، لأن كتب التأويل الاسماعيلى لم تكن فى متناول أيديهم على نحو ما هى الآن . ومهما يكن من شى فإن اسماعيلية الشام اعترفوا بإمامة راشد الدين سنان وألصقوا به مناقب كثيرة ، ومنها أنه كان يعلم الغيب ، ويروون عنه فى ذلك نوادر منها أنه أمر الفلاحين يوماً بالعودة مبكرين من الحقول إلى منازلهم لأن طفلا صغيراً جرح جرحا خطيرا دون أن يراه أحد ، وأن الطفل فى حاجة إلى من يعتنى به وإلا مات ، فلما عاد الفلاحون إلى قراهم وجدوا الطفل على نحو ما ذكره سنان .

ويروى الاسماعيلية أيضا أن سنانا كان متوجها إلى قلعة مصياف ذات يوم فنزل بقرية المجدل التى خرج أهلها جميعاً لاستقباله والترحيب به ، وجاءه شيخ القرية بطعام مغطى بغطاء

ووضع الطعام بين يدى سنان ، ولكن سنانا أمر بأن يوضع هذا الطعام على حدة وأن لا يكشف أحد عن الطعام ، وأخيراً عند ما هم سنان ركوب دابته ، سأله شيخ القرية عن سبب عدم تناول شيء من طعامه الذى قدمه له وما فى ذلك من امتهان له أمام أهل القرية ، فهمس سنان فى أذنه بأن زوجة شيخ القرية هيأت الطعام على عجل واضطراب فنسيت أن تنزع أحشاء الدجاج منها ، ففضل سنان أن يتصرف هذا التصرف حتى لا يعرف أهل القرية شيئا عن السبب فيزداد امتهانهم لشيخ القرية وزوجه . فمثل هذه القصص كان لها أثرها فى عقلية الدهماء والسذج ولا سيما فى تلك العصور التى عاش فيها سنان ، فذهبوا فى سنان مذاهب شتى .

أضف إلى ذلك كله أن سناناً كان يكثر من عقد مناظرات بينه وبين علماء أهل السنة بحضور عدد كبير من أتباعه ، وكان سنان يظهر على كل مناظريه ويدحض حججهم وأقوالهم مما جعل أتباعه ينقادون إليه كل الانقياد ، ويتبعون تعاليمه وآراءه اتباعاً أعمى ، واعتقدوا أنه هو الإمام من نسل نزار فلم يتطلعوا إلى آلموت أو إمامة من كان هناك ، ومات سنان بعد أن نظم جماعة الاسماعيلية فى سورية ، وخلفه فى رئاسة الطائفة جماعة من الدعاة لم يكن لهم مواهب سنان وقوة شخصيته . ولذلك تطلع اسماعيلية الشام مرة أخرى إلى أئمة آلموت ، وقد ذكرنا كيف غزا هولاكو قلاع الاسماعيلية فى فارس سنة ٦٥٤ هـ ، واضطر إمامهم

ركن الدين شاه إلى الاستسلام له فأرسل ركن الدين إلى داعيته بالشام أبى المعالى رضى الدين أن يسلم قلاع الشام إلى المغول ، فرفض الداعى أن يأتمر بأمر إمامه وأراد المقاومة ، ولكنه أمام انتصارات المغول فى الشام اضطر أن يسلم بعض القلاع لهم سنة ٦٥٨ هـ ، غير أن جيوش مصر استطاعت أن تنزل بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت فى رمضان سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩م) وتبدد شمل جيوشهم فى الشام واسترد الجيش المصرى البلاد التى استولى عليها المغول ، فانتهز الداعى أبو المعالى هذه الفرصة وجمع رجاله الذين أظهروا بلاءاً حسناً ضد المغول ، واسترد بهم قلاع الاسماعيلية ، ثم أخذ فى تطهير طائفته من كل من ضعف عن القتال معه أو من خانه ، وبذلك قوى الاسماعيلية بعض الشىء ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام جيوش الظاهر بيبرس الذى هاجمهم سنة ٦٦٤هـ ، وكانوا برئاسة الداعى «نجم الدين» واضطروا إلى أن يطلبوا من بيبرس أن يكونوا من بين رجاله ، ولعل ضياع حصون وقلاع الاسماعيلية فى فارس وتشريدهم فى البلاد واستتار إمامهم الاسماعيلى النزارى خوفاً على نفسه ، كل ذلك كان من أسباب تخاذل الاسماعيليـة بالشام وضعفهم إلى هذه الدرجة التى قابلوا بها جيوش الظاهر بيبرس ، فقبلوا أن يدفعوا له الجزية وأصبح له الحق فى أن يولى عليهم من يشاء من الدعاة ويعزل من يشاء ؛ فنى سنة ٦٦٩ هـ عزل بيبرس الداعى نجم الدين وولى بدلا

عنه الداعى صارم الدين بن سالمة على قلعة القدموس وقلعة الرصافة ، أما مصياف التى كانت القلعة الرئيسية للاسماعيلية وعاصمة بلادهم بالشام فقد احتفظ بيبرس بحكمها لنفسه ، وقد شاء صارم الدين ابن سالمة أن يتخلص من حكم بيبرس وأن ينقض المعاهدة التى كانت بين الاسماعيلية وبيبرس ، فهاجم مصياف وأمر بثورة باقى قلاع الاسماعيلية ، ولكن حركته هذه فشلت وهرب صارم الدين إلى قلعة العليقة التى سقطت فى أيدى نائب بيبرس سنة ٦٧٠ هـ ، وألقى القبض على صارم الدين الذى استسلم لبيبرس فحبسه ، وكذلك استسلمت قلعة المنيقة وقلعة القدموس إلى رجال بيبرس بينما ظلت قلعة الكهف صامدة قوية إلى أن استسلمت سنة ٦٧٢هـ ، وبذلك سقطت كل القلاع الاسماعيلية وعادوا إلى الخضوع إلى بيبرس ، وبالرغم من هذه الثورة الاسماعيلية التى قاموا بها ضد بيبرس فإنه لم يشتت الاسماعيلية كما فعل هولاكو باسماعيلية فارس بل أبقاهم تحت سلطانه وتحبب إليهم حتى يستفيد من توجيه الفدائيين لضرب أعدائه ، وقد صرح بذلك ابن بطوطة الرحالة المغربى الذى زار قلاعهم سنة ٧٢٧ هـ ، فبعد أن تحدث عن هذه القلاع قال : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته ،

فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهى له وإن أصيب فهى لولده » ، ولعل الفدائى الذى كان يعتمد عليه بيبرس هو المدعو « شيحة » المدفون بدمياط والذى يقال فيه المثل العامى « مثل ألاعيب شيحة » حتى إن شيحة هذا ذكر فى القصة الشعبية التى وضعها المصريون عن الظاهر بيبرس ، وكنا نود أن توافينا المراجع بشىء عن شيحة هذا ، ولكنها بخلت علينا بذلك .

ومهما يكن من شىء فإن اسماعيلية الشام ظلوا على عقيدتهم يجاهرون بها فى قلاعهم وحصونهم ، منهم من يدعو للأئمة النزاريين من نسل قاسم شاه ، ومنهم من يدعو إلى الأئمة النزاريين من نسل إمام شاه ، غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة بالرغم من الدور الخطير الذى قاموا به فى الشام ، ولا يزالون إلى الآن فى سلمية والخوابى والقدموس ومصياف وبانياس والكهف .

الفصل السادس

أغا خان

بعد تشريد الاسماعيلية النزارية وتشتت شملهم وضياع قلاعهم فى فارس ، وبعد أن هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد الهند ، لم يعد أحد يسمع شيئاً عنهم أو عن نشاط سياسى لهم ، فلم يحاولوا أن يتجمعوا ليقوموا ببناء كيان سياسى خاص بهم مثل هذه المحاولات العديدة التى قاموا بها من قبل ، بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن أفراد الطائفة فى الهند لم يبالوا بشىء سوى المحافظة على حياتهم ، ولم يتصل أحدهم بالأئمة إلا هؤلاء الذين كانوا فى حاشية الأئمة ، حقيقة ظلوا على عقيدتهم الاسماعيلية التى تأثرت بالعقائد الهندية ، وحاول بعض الدعاة أن ينشروا المذهب الاسماعيلى بين طوائف الهنود المختلفة وخاصة بين طبقة المنبوذين ونجحوا فى ذلك نجاحاً ملحوظا ، ولكنهم عاشوا فى الهند مواطنين مسالمين مثل غيرهم من سكان الهند ، واعتبرتهم الدولة إحدى الطوائف الدينية التى تكثر فى تلك البلاد ، ولم تهتم بهم الدولة لأنه لا خطر منهم على سلامتها ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عنهم لأنهم لم يقوموا بأعمال يسجلها التاريخ ، ولم يظهر بينهم

شخصية فذة يقف عندها الباحثون ، كانوا يشتغلون بالتجارة وتدبير المال ، شأنهم فى ذلك شأن الأقليات فى كل مجتمع ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً ملحوظاً ، أما ميادين الحياة الأخرى فتركوها لغيرهم . ظلوا يعيشون فى سلم وأمان حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، ففيه ظهر فى إيران « حسن على شاه » الذى جمع حوله عدداً من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية هاجم بهم القرى والقوافل حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه حتى خشيته الأسرة القاجارية الحاكمة فى إيران ولا سيما بعد وفاة الشاه فتح على سنة ١٨٣٥ م ، وأشاد الإيرانيون بأعمال البطولة التى قام بها حسن على شاه وأتباعه فتوافدوا عليه وانضموا لجماعته طمعا فى المكاسب المادية التى سيحظون بها من مهاجمة القرى والمدن ، ولم يكن « حسن على شاه » فى ذلك الوقت يذيع شيئاً عن اسماعيليته أو ينشر بين أتباعه شيئاً عن عقيدته ، بل عمل أولا على جمع الناس حوله وظهورهم بمظهر القوى الغنى .

أما الناحية الدينية المذهبية فلم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد ، وفى هذه السنوات التى بدأ فيها الحسن على شاه هذه المحاولات ، كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم فى بلاد فارس ، ومن عادة الإنجليز دائما فى كل بلد يطمعون فى استعماره أن يبثوا الدسائس فى ربوعه ، ويوقعوا الفرقة بين صفوف الأمة

الواحدة ، ويستميلوا إليهم كل طامع فى الجاه أو الثروة ، فكان من الطبيعى أن يتصل أعوان الإنجليز وصنائعهم فى فارس بجماعة حسن على شاه ، وزينوا لهم القيام بثورة ضد الشاه ، ومنوهم أن يتولى حسن على شاه حكم فارس ، وتمت المؤامرة مع الإنجليز ، وقام حسن على شاه بالثورة ، ولكنها فشلت ، وقبض شاه إيران على حسن على شاه زعيم الثورة وزج به فى السجن ، ولكن الإنجليز تدخلوا واستطاعوا أن يحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن ينفى من إيران كلها ، وخرج حسن على شاه من سجنه وهو لا يدرى أين يذهب وقد انفض من حوله أنصاره وأتباعه ، فزين له الإنجليز أن يرحل إلى أفغانستان ، فربما استفادوا منه هناك ، إذ كان الإنجليز فى حرب مع الأفغانيين ، وكانوا على خلاف شديد مع روسيا بسبب مناطق النفوذ فى أفغانستان . رحل حسن على شاه إلى أفغانستان مزودا بتعاليم من الإنجليز يزداد بها نفوذهم ، وكان يقنع نفسه دائما بأنه يرد إلى الإنجليز جميلهم فى إطلاق سراحه ، ولكن يظهر أنه لم يوفق فى مهمته ، فقد فطن الأفغانيون إليه وإلى الدور الذى جاء يمثله ضدهم فى خدمة أعدائهم الإنجليز ، فاضطر بعد فشله إلى الرحيل إلى الهند واتخذ مدينة بومباى مقراً له ، وأراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، فإذا بهم يعترفون به إماماً للطائفة النزارية الاسماعيلية ، وخلعوا عليه لقب « أغا خان »

ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الاسماعيلية ، فتجمع حوله الاسماعيلية فى الهند وفرحوا بظهور شأنهم بعد أن ظلوا مغمورين طوال هذه القرون ، وبظهور إمامهم الذى ظل فى الستر والكتمان مئات السنين ، فرأى « حسن على شاه » أو « أغا خان » نفسه بين جماعة يطيعونه طاعة تدين دون أن يكون لهم غرض مادى ، فقوى نفوذه بينهم وأصبح كأنه سلطانهم الفعلى ، فأخذ ينظم شئونهم إلى أن توفى سنة ١٨٨١ م ، وبذلك وجدت الأسرة الأغاخانية وصارت لهم إمامة الاسماعيلية النزارية ، وانتسبوا إلى الإمام نزار بن المستنصر بالله الفاطمى ، ومؤسس هذه الأسرة هو حسن على شاه وهو أول إمام إسماعيلى لقب بأغا خان .

خلفه ابنه أغا على شاه فى إمامة الطائفة الاسماعيلية النزارية ولقب بأغا خان الثانى . كان أبوه قد هيأه لتولى هذا المنصب الخطير ولتحمل إمامة طائفة دينية ، فعلمه تعليما يتفق مع ما كان ينتظره من الإمامة ، فكان أغا خان الثانى على درجة عالية من الثقافة وكان يجيد عدة لغات إجادة تامة منها اللغة العربية ، وكان شاعراً من شعراء اللغة الفارسية والأوردية والجوجراتية ، وقد أفادته ثقافته وسعة اطلاعه فى نشر التعليم بين طائفته ، بل أنشأ فى الهند مدارس خاصة بالمسلمين عموماً على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، فاكتسب بذلك تقدير وحب جميع المسلمين فى الهند ، ومما ضاعف فى علو مكانته بين الناس أنه استطاع أن يتزوج

زوجته الثالثة كريمة الشاه فتح على شاه إيران وهى المعروفة باسم « بيبي خان » ، وأنجب منها ابنه محمد الحسينى شاه المعروف بأغا خان الثالث ، وهو أغا خان المعروف فى العالم بأسره المتوفى فى أغسطس سنة ١٩٥٧ م ودفن فى أسوان بمصر ، والذى فى عهده بلغت طائفة الاسماعيلية مكانة فى العالم كله ونظمت تنظيما دقيقاً بفضل عبقرية أغا خان الراحل .

أغا خان الثالث :

ولد أغا خان الثالث « محمد الحسينى شاه » فى مدينة كراتشى — عاصمة الباكستان الآن — فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ م ، وتولى إمامة الطائفة الاسماعيلية عقب وفاة أبيه أغا خان الثانى فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٥ م ، وكان أغا خان الثالث فى الثامنة من عمره حين تولى الإمامة ، وكانت الإمامة أولا لأخيه شهاب الدين شاه ، توفى فى حياة أبيه ، فانتقلت ولاية العهد إلى محمد الحسينى شاه الذى تولى الإمامة صغيراً فكفلته أمه وفى نفس الوقت أشرفت بنفسها على شئون الطائفة الإسماعيلية ، وكانت سيدة تمتاز برجاحة العقل وحسن التدبير والقدرة على تصريف الأمور على أحسن وجه ، فإليها يرجع الفضل فى تشجيع المرأة الاسماعيلية على طلب العلم وعلى المساهمة فى الحياة العملية جنباً إلى جنب مع الرجل ، وقد طلبت إلى عدد كبير من فتيات الأسر الاسماعيلية الكبيرة

فى الهند أن يتطوعن للعمل فى المستشفيات إبان الحرب العالمية الأولى ، وطلبت إلى المرأة الاسماعيلية الاشتراك فى الأندية الرياضية والندوات الثقافية والجمعيات العلمية ، فإلى السيدة « بيبى خان » يرجع الفضل الأول فى نهضة المرأة الاسماعيلية وخروجها على التقاليد القديمة ، وقد لمس الاسماعيلية منذ أول وهلة تولت فيها شئونهم اهتمامها الشديد بتنظيم المجتمع الاسماعيلى ، ودفع هذا المجتمع إلى الأمام بعيدا عن التقاليد البالية التى كان عليها الاسماعيلية من قبل أو التى يعيش عليها إخوانهم الاسماعيلية البهرة ، فاندفع الاسماعيلية الأغاخانية (النزارية) إلى الأخذ بأسباب التقدم الاجتماعى ، والأخذ عن الحضارة الغربية بمقدار ، ومن الطبيعى أن تهتم هذه السيدة بتربية ابنها « أغا خان » تربية من شأنها أن تجعله إماماً صالحاً لطائفته أولا وللإنسانية ثانياً ، حتى كانت سنة ١٨٩٣ وقد بلغ ابنها السادسة عشرة من عمره ، فتركت إليه شئون الطائفة على أن يستشيرها كلما وجد ما يدعو لاستشارتها ، أو وجد نفسه أمام مشكل من المشاكل . تركت إليه تدبير أمور الطائفة التى هو إمامها ، ولكنها ظلت ترقبه وتتبع أعماله وتوجهه إلى ما فيه خير هذه الطائفة ، وبفضل توجيه هذه السيدة الكريمة استطاعت الطائفة الاسماعيلية أن تبلغ فى عهد أغا خان الراحل درجة من الثراء والثقافة والتقدم الاجتماعى ما جعلت صحف العالم تتحدث عنه . استطاع أغا خان

بما قام به من أعمال أن يكتسب احترام المسلمين وغير المسلمين ، وبالرغم من أنه استمر يدين بآراء وعقائد الحسن (على ذكره السلام) وجعل طائفته يدينون بنفس هذه العقائد فإنه كان يحب دائماً أن يعرف أنه غيور على الإسلام ومصالح المسلمين ، وأنه من نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما من مشكلة وقعت للمسلمين فى عهـده إلا ونراه قد طرح عن نفسه صفته المذهبية وصبغته الطائفية وتطوع للدفاع عن المسلمين ، وتاريخه الطويل حافل بذلك ، ولنضرب لذلك بعض أمثلة فإننا لا نستطيع أن نسرد كل ما قام به ، فالذين يعرفون تاريخ حياته يذكرون أنه إبان حركة الـكماليين فى تركيا وإلغـاء الخلافة العثمانية ، كان أغا خان يدافع عن الخلافة ويهب العثمانيين الأموال ليظلوا رمزاً لقوة الإسلام والمسلمين ، مع العلم بأن تاريخ الأتراك يدل على أنهم كانوا ألد أعداء الشيعة عامة والاسماعيلية خاصة ، فالأتراك من جمهور أهل السنة على مذهب أبى حنيفة الذى يخالف مذهب الاسماعيلية تمـام المخالفة ، والعداء بين العنصر التركى والاسماعيلية عداء قديم تقليدى ، ومع ذلك كان أغا خان يدافع عنهم لأن الخلافة الإسلامية رمز للمسلمين ، وكذلك نقول عن موقفه إبان الحرب بين الـكماليين واليونان ، فقد فـكرت إنجلترا أن تدخل الحرب فى صف اليونان ضد تركيا ، فلما علم أغا خان بذلك أسرع إلى إنجلترا وقابل المسئولين فيها إذ ذاك واستطاع

بنفوذه وصداقته لهم أن يقنعهم بالعدول عن هذه الفكرة التى ستسىء إلى العالم الإسلامى بأسره ، ونذكر أيضاً أنه أثناء عقد الصلح بين تركيا واليونان كان الاتفاق على أن يكون إقليم تراقيا من نصيب اليونان ، فقام أغا خان على رأس وفد من مسلمى الهند يضم ممثلى المذاهب المختلفة ، وحاولوا إقناع لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت بالعمل على أن يكون إقليم تراقيا من البلاد التركية ، ولكن لويد جورج قال للوفد « إن اليونان تحتل هذا الإقليم بالفعل ولا سبيل لنا إلى إخراجهم منه » فانبرى له أغا خان يقول « حسناً يا سيدى رئيس الوزراء إنى رجل كبير السن ولكنى سأذهب إلى تراقيا وسيفى فى يمينى لطرد اليونان من هذا الإقليم الذى هو جزء من بلاد المسلمين » ومع هذا لم تفلح محاولة أغا خان ومن معه من مسلمى الهند فى إعادة هذا الإقليم إلى تركيا . ومن مآثره أيضاً فى خدمة المسلمين جميعاً أنه نادى بأن يأخذ المسلمون فى الهند مكانهم الطبيعى فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فأسس مع جماعة من المسلمين « الرابطة الإسلامية » سنة ١٩٠٧ وانتخب رئيساً لها سنة ١٩١٤ ، وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتعمل على النهوض بمستواهم فى الهند ، وهذه الرابطة تطورت إلى حزب سياسى كان له خطره فى الهند وترتب على أعماله وجود دولة الباكستان الحالية ، وبالرغم من أن مؤسس دولة الباكستان

« محمد على جناه » كان من أتباع أغا خان فى العقيدة ، فإنه كان يخالفه فى الرأى السياسى لأن أغا خان لم يوافق على تقسيم الهند أو على إنشاء دولة الباكستان إذ كان يرى وجودها إضعاف شأن المسلمين فى الهند والباكستان معاً . ولكنهم خالفوا رأى إمامهم وانساقوا وراء فكرة التقسيم لما فيها من غنم لهم ، ومع ذلك فإن أكثر رجال دولة الباكستان المسئولين من أتباع الاسماعيلية الأغاخانية .

ولعل أقوم عمل خالد له فى سبيل المسلمين هو إنشاء أول جامعة علمية للمسلمين بالهند ، فقد رأى أن الهندوكيين يتبرعون بسخاء لإنشاء جامعات علمية لهم ، وليس للمسلمين جامعة تدرس العلوم الحديثة بجانب العلوم العربية والإسلامية ، وجد أن المسلمين بالهند متخلفون فى ميدان العلم لسبب انكبابهم على الكتب الدينية فقط من تفسير وحديث وتصوف وكلام وهى علوم لها قيمتها الكبرى لكل من يتخصص فيها ويؤهل نفسه ليكون رجلاً من رجال الدين ، ووجد بالهند معاهد خاصة إسلامية لتدريس هذه العلوم الإسلامية دون أن يتقدم العلماء أو الطلاب خطوات بهذه العلوم بل كان أكبر همهم هو المحافظة على تقاليد ليست من الدين الإسلامى فى شىء كالتقيد بزى خاص أو التمسك باللحى إلى غير ذلك من المظاهر التى نشاهدها اليوم بين علماء المسلمين فى الهند ، أما العلوم الحديثة فكان العلماء يقولون إنها

علوم أهل النار ! ! رأى أغا خان ذلك كله فدعا المسلمين فى الهند على اختلاف مذاهبهم إلى إنشاء جامعة للمسلمين ، وعمل على نشر الوعى العلمى بين المسلمين ، وقام على رأس وفد من المسلمين طاف بهم كل بلاد الهند لجمع تبرعات من المسلمين لإنشاء هذه الجامعة ، وا كتتب المسلمون من غير الاسماعيلية لهـذه الجامعة ودفع أغا خان من ماله الخاص مبلغاً يوازى كل ما جمع من المسلمين ، فـكان نتيجة هذا الجهد « جامعة أليجار » التى تجمع فى منهجها العلوم الحديثة مع العلوم الإسلامية والعربية ، وانتخب أغا خان مديراً فخرياً لها عدة مرات ، ومديرها الفخرى الآن هو طاهر سيف الدين زعيم الاسماعيلية البهرة .

وأذكر أنى كنت أتحدث إليه بفندق ميناهاوس بالقاهرة عقب إنشاء الجامعة العربية ، فأبدى لى أسفه من عدم تفـكير المسئولين فى إنشاء جامعة إسلامية تضم جميع البلاد الإسلامية للنهوض بالمستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى بين شعوب المسلمين ، وكان من رأيه ضرورة إنشاء الجامعة الإسلامية على شرط أن لا تتدخل هذه الجامعة فى الشئون السياسية ، وكان على استعداد للقيام بالدعوة لهذه الجامعة وأن يدفع وحده عن طائفة الاسماعيلية مبلغاً يساوى جميع ما يدفعه المسلمون فى العالم إذا تحققت هذه الوحدة بين المسلمين ، وتركته رحمه الله وأنا أفـكر فى أقواله عن الوحدة الإسلامية وجامعة الأمم العربية وتوهمت يومئذ أن الرجل

ربما كان مدفوعا من الإنجليز لتحطيم الجامعة العربية .

اهتم أغا خان بالتبشير بمذهبه الإسماعيلي ودعوة الناس إلى اعتناق عقائده ، ووجه اهتماماً خاصاً للتبشير بين طائفة المنبوذين بالهند فاستجاب لدعوته جمهور غفير منهم ، وأتباعه يذكرون كيف أن شخصاً واحداً من كبار رجالهم وهو السيد محمد على ميكلاى المليونير المعروف فى بومباى استطاع بمفرده أن يدخل نحو عشرة آلاف منبوذ فى الطائفة الاسماعيلية . وكان أغا خان يطلب من المؤلفين أن يضعوا كتباً عن الإسلام باللغات الأوربية ويكافئ المؤلفين بسخاء ، حتى إن أحد الأطباء المصريين عاش فى أوربا أكثر من ثلاثين سنة يؤلف كتباً إسلامية ويتقاضى من أغا خان أجوراً عالية كفلت له أن يعيش فى أرقى مستوى فى أوربا .

تزوج أغا خان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين ، فنى سنة ١٨٩٧ م تزوج من أميرة إيرانية هى البيجوم (بمعنى السيدة) شاه زادى ، ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، وفى سنة ١٩٠٨ م تزوج من فتاة إيطالية هى تريزا ماجليانو وأنجب منها ابنه الأكبر « على سليمان خان » ، وفى سنة ١٩٢٧ م أعجب بفتاة فرنسية كانت تبيع الحلوى والسجاير فى كشك بجوار مقهى الدوم بحى مونبارناس بباريس هى أندريه كارون وأنجب منها ابنه « صدر الدين خان » ثم طلقها ، وتزوج سنة ١٩٤٤م من عارضة

أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هى « لابروس » وهى أرملته الملقبة بعد أن أسلمت وتمذهبت بالاسماعيلية بالبيجوم أم حبيبة . هؤلاء هن زوجات أغا خان الراحل الشرعيات ، غير أن المقربين إليه يقولون إنه فى شبابه كان زير نساء .

كان أغا خان بعيد النظر صادق الفراسة ، يعرف كيف يستغل المواقف فى سبيل طائفته ، فقد رأى مثلا أن بريطانيا قد احتلت المستعمرات الألمانية فى شرق أفريقيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وأن بهذه البلاد خيرات كثيرة ، فأمر الفقراء من أتباعه بالهجرة إليها ، وساعدهم بالمال والنفوذ لدى الإنجليز حتى استطاع الاسماعيلية هناك أن يستولوا على الحياة الاقتصادية ، وأن يصبحوا من أغنى أغنياء العالم ، ومن هنا نلمس سبب الشكوى فى أن الاسماعيلية فى كينيا يناهضون الحركة التحررية ، ويساعدون الإنجليزية فى قمع ثورة « ماو ماو » ، وهى الثورة التى تهدف إلى إخراج الإنجليز من هذه المنطقة . وفى سنة ١٩٥٦ اتجه أغاخان إلى أتباعه فى سورية فأمر بتأسيس شركة تجارية للتجارة مع اسماعيلية شرق أفريقيا ، ورصد مليونا من الجنيهات لهذه الشركة ، وكان قبل ذلك بسنوات قد لاحظ ضعف حالة اسماعيلية الشام الاقتصادية وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا له «الخمس» — وهو المال الذى يجب أن يدفعه كل اسماعيلى إلى الإمام — فأمر بإعفائهم من هذه الفريضة لمدة عشر سنوات على أن يدفعها القادرون ، وتجمع هذه الأموال

وتنفق فى النهوض بمستوى الطائفة فى الشام ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، وأمر بتشكيل مجلس أعلى للإشراف على ذلك .

ويتساءل الناس عن قصة وزن أغا خان بالذهب والماس والبلاتين ، فقد وزن مرتين بالذهب مرة فى مدينة بومباى سنة ١٩٣٦ ، ووزن مرة أخرى فى شرق أفريقيا سنة ١٩٣٧ ، وذلك بمناسبة مرور خمسين سنة على ولايته إمامة الطائفة الاسماعيلية ، ووزن ثلاث مرات بالماس سنة ١٩٤٦ احتفالا بمرور ستين عاماً على إمامته ، ووزن فى القاهرة سنة ١٩٥٦ بالبلاتين بمناسبة الاحتفال بمرور سبعين عاماً على إمامته ، جمع أتباعه من أبناء الطائفة ما يوازى قيمة وزنه بهذه الجواهر وقدموا هذا المبلغ هدية منهم إليه فى تلك المناسبات رمزاً لحبهم العميق له وولاء منهم لإمامهم ، ولكن يجب أن نعترف بالحقيقة التى لا يعلمها غير أتباعه أو المتصلين بهم ، وهى أن هذه الأموال التى قدمت إليه فى كل هذه المناسبات لم يتسلمها أغا خان ولم تدخل فى رصيده الضخم فى البنوك ، إنما تسلمها « مجلس إدارة الرابطة الاسماعيلية » للانتفاع بهـا فى نشر التعليم وإنشاء المستشفيات للطائفة ومساعدة المحتاجين — أنى وجدوا من أبناء الطائفة — فمجلس إدارة الرابطة الاسماعيلية هو المسئول الأول أمام أغا خان عن النهوض بالطائفة ورفع مستوى أفرادها فى جميع النواحى ، وقد وضع المجلس دستوراً للجمعيات الاسماعيلية فى جميع بلاد العالم ،

وتتلخص مواد هذا الدستور فى تقسيم الطائفة الاسماعيلية إلى وحدات ، ويشرف على كل وحدة منها أخصائيون اجتماعيون وأساتذة مثقفون وأطباء ، ويتكون منهم مجلس إدارة الوحدة ، وعلى كل وحدة أن تهتم بتعليم أبنائها بالمجان فى مدارس خاصة بهم فى الوحدة ، وإذا نبغ أحد التلاميذ فالوحدة تبعث به لإتمام تعليمه فى جامعات إنجلترا ، وإذا أراد التلميذ أن يختصر تعليمه ويتجه إلى التجارة فعلى الوحدة مساعدته مادياً وأدبياً حتى ينجح فى تجارته ، وعلى الوحدة أن تنشئ المستشفيات الخاصة بالطائفة والعلاج بها بالمجان أيضاً ، ويجب أن يهتم الاسماعيلية فى كل الوحدات بالرياضة البدنية وأن يكون شعارهم هو شعار الاسماعيلية الأغاخانية : « طهر نفسك وطهر جسدك » .

وفى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٨ أصدر أغا خان دستوراً خاصاً للطائفة الاسماعيلية فى أفريقيا ، وينص هذا الدستور على تقسيم الطائفة فى إفريقيا إلى ثلاثة مراكز رئيسية ، المركز الأول فى دار السلام ، والثانى فى نيروبى ، والثالث فى كامبالا ، أما الاسماعيلية الذين فى زنجبار ومدغشقر والكونغو البلجيكى فيتبعون المركز الأول فى دار السلام . ويعين أغا خان رئيساً لكل مركز لمدة عام واحد فقط ، وللرئيس سلطة اختيار الذين يعاونونه فى الإشراف على الاسماعيلية التابعين له بعد أن يوافق أغا خان على هؤلاء المعاونين ، ونص الدستور على أن يكون السيد محمد على ميكلاى

رئيساً عاماً لكل هذه المراكز ، وله الرأى الأخير فى كل شىء بعد استشارة أغاخان ، وجاء فى هذا الدستور أيضاً أن كل إسماعيلى يريد أن يتطوع لنشر الدعوة الاسماعيلية ، أو أن يكون مدرساً ، فعليه أن يعد نفسه لذلك إعداداً خاصاً من الناحية الثقافية العامة ومن الناحية الدينية ، على أن تطوعه هذا لا يكسبه أى حق من الحقوق بل يلزمه ببعض الواجبات ، وكل الذى يعود عليه من تطوعه هو شرف خدمة الدعوة وخدمة الإمام ، ويشترط على كل من يتطوع لهذه الخدمة والحصول على هذا الشرف أن يبتعد كل البعد عن أى عمل سياسى ، أو الاتصال بأية هيئة سياسية أو شبه سياسية حتى لو حملت هذه الهيئة اسماً ثقافياً ، ولا يسمح لنفسه أن يقبل هدية ما بطريقة مباشرة أو طريقة غير مباشرة من أى شخص أو أية هيئة . كذلك نظم الدستور المواد الدراسية التى يجب على المدرسين والمبشرين أن يتوسعوا فى دراستها ، وأهم المراجع العلمية التى يعتمدون عليها ، وبين الدستور طريقة جمع التبرعات من الطائفة وأوجه صرفها . . . الخ ، ومركز قيادة الاسماعيلية الرئيسى فى العالم كله مدينة كراتشى عاصمة الباكستان ، ومن هذا المركز تصدر التعليمات إلى جميع المراكز الأخرى .

هكذا أوجد أغا خان تنظيمات جديدة الغرض منها النهوض بالطائفة ، وبفضل هذه التنظيمات استطاعت طائفة الاسماعيلية أن تبعث من جديد ، وأن تتحد اتحاداً قوياً جداً حتى صار لها هذه

الشهرة الواسعة فى جميع أنحاء العالم ، وذلك بفضل شخصية أغا خان الراحل بالرغم مما عرفه العالم عنه فى حياته من حبه للحياة الصاخبة بين الموائد الخضراء ومضمار سباق الخيل ، وحبه لارتياد دور اللهو البرىء وغير البرىء ، حتى عجب الناس من تناقض شخصيته ، فهو إمام لطائفة دينية يعتقد أتباعه عصمته ، ورفعوه فى التقديس إلى درجة الألوهية ، ثم هو فى الوقت نفسه لم يتحرج عن أن يأتى ما يتنافى مع كل دين من الأديان ، ثم إن المعروف عن أغا خان أنه كان يسرف فى لهوه ومسراته إلى درجة السفه ، وفى الوقت نفسه كان يقتر ويبخل فلا يدفع مليما واحداً لغير أبناء طائفته ، وأذكر أن أحد أتباعه من كينيا جاء إلى مصر إبان الحرب العالمية الأخيرة ، وأراد أن يفتح متجراً ولكنه لم يوفق إلى العثور على المحل الذى أراده ، فذهب يشكو إلى أغا خان وكان إذ ذاك فى مصر وكنت فى زيارته ، فقال له أغا خان : اذهب وابحث عن المحل الذى يلائمك ، وساوم على شرائه وسأدفع لك الثمن . وبالفعل دفع أغا خان حوالى ألفين من الجنيهات (خلو رجل) لمحل فى عمارة الإيموبيليا وتاجر فيه هذا الإسماعيلى ، وبعد سنة واحدة انتهت الحرب ثم انتقل الإنجليز من القاهرة إلى منطقة القناة ، فانتقل هذا التاجر الإسماعيلى وراءهم إلى القناة ثم عاد إلى بلاده بعد ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ . وفى نفس الوقت الذى دفع فيه أغا خان هذا المبلغ لهذا الشاب الاسماعيلى ، دخل

رجل إيرانى كبير السن رقيق الحال يسأله المساعدة ، فثار أغا خان في وجهه وطرده . وحدثنى أحد أتباعه المقربين إليه أنه إذا أراد أن يساعد شخصاً أو هيئة ، كان يوعز إلى أحد أتباعه الميسورين بذلك فيتولى الدفع باسم أغا خان ، دون أن يخرج هو مليما واحداً من جيبه . وأتباعه يحفظون عنه كثيراً من النصائح فى الاقتصاد وعدم الإنفاق ووجوب ممارسة التجارة ولو برأس مال قليل ، وعدم التدخين وعدم شرب الخمر ، كان يحض أتباعه على ذلك كله ويعظهم فى رسائله وخطبه لاتباع هذه النصائح .

ومن ذكرياتى معه رحمه الله ، أنى كنت أناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية . وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع إلى موضوع مما جعلنى أعجب أشد الإعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية إحاطة تامة ، فاستأذنته فى توجيه سؤال إليه ربما أغضبه ، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له :

— لقد أدهشتنى بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إله ؟

فضحك طويلا جداً وعلت قهقهاته ، ودمعت عيناه من كثرة الضحك ثم قال :

— هل تريد الإجابة عن هذا السؤال ، إن القوم فى الهند يعبدون البقرة ، ألست خيراً من البقرة ! !

فلم أحر جواباً بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا أفكر فى هذا الرجل الذى اعتقد فيه أتباعه الألوهية ، أو على الأقل إن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بإله ، ولم يمسسه نور الله ، ومع ذلك ترك أتباعه فى اعتقادهم دون أن يرشدهم إلى الحقيقة ، وترك الناس يتقولون فيه الأقاويل ، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر فى حياته التى اختارها لنفسه دون أن يجعل لأحاديث الناس عنه أثراً أو يقيم لها وزناً .

كان أغا خان يجيد عدة لغات أوروبية كما كان يجيد اللغة الفارسية والأوردية لغة مسلمى الهند ، ولم يكن يعرف اللغة العربية عبَّر عن مدى معرفته العربية فقال « قليلا كثيراً ! ! » .

ترك أغا خان ولدين ، الأكبر هو الأمير « على سليمان خان » والثانى هو الأمير « صدر الدين » ، أما الأمير على خان فقد ولد فى ١٣ يونيه سنة ١٩١٠ م ، من أم إيطالية ، وأمضى طفولته فى رعاية أمه متنقلا بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بكلية « مايو » بمدينة أكرا بالهند ، وهى كلية خاصة بأبناء المهراجات قبل استقلال الهند ، وكان عميد الكلية رجلا انجليزياً اسمه « وادينجتون » وبعد أن أتم على خان فى هذه الكلية سنى دراسته ، تركها ليتلقى عن والده فن الحياة ، وأمضى مع والده عدة سنوات ، تركه بعدها والده ليستقل بحياته الخاصة مع أترابه من الشبان بعد أن نصحه والده بكثرة السفر

والتنقل بين البلدان ليزداد خبرة وتكثر تجاربه فى الحياة . وفى مايو سنة ١٩٣٦ أحب على خان فتاة إنجليزية تزوجها واعتنقت العقيدة الاسماعيلية وأطلقت على نفسها اسم « تاج الدولة » واصطحبها على خان فى رحلة طويلة إلى الهند سنة ١٩٣٧ ، وإلى تركيا وسورية ومصر سنة ١٩٣٨ ، وشاركته فى رحلة لصيد النمور فى الهند وإفريقية ، وقد أنجب منها ولده « كريم » الذى تولى إمامة الاسماعيلية بعد وفاة جده أغا خان الثالث ، وأنجبت له أيضاً ابنه الثانى « أمين » . ويظهر أن أغاخان كان يريد أن يوصى بولايته أحد اثنين من بعده ، ابنه « صدر الدين » أو حفيده « كريم » فإنه أمر أن يثقف ابنه صدر الدين وحفيده بالثقافة الإسلامية بجانب الثقافة الغربية ، وأن يتعلما اللغتين العربية والفارسية بجانب الإنجليزية والفرنسية ، وطلب إلى أن أكون مشرفاً على تثقيفهما بالثقافة الإسلامية ولكنى اعتذرت عن ذلك ، فطلب منى أن أضع لهما المنهج الذى يجب أن يسيرا عليه ، وأن أبين للأستاذ الذى جاء لتثقيفهما من الهند أبرز الموضوعات التى يجب أن يهتم بها ، ولذلك لم أدهش عند ما قيل لى إن أغا خان الراحل أوصى لحفيده كريم خان بإمامة الطائفة من بعده ، حقيقة كان أفراد طائفة الاسماعيلية منقسمين على أنفسهم أثناء مرض أغا خان ، وكل جماعة يرشحون إمامهم المنتظر ، ولم أسمع أن أحداً منهم رشح الأمير على خان إلا اسماعيلية الشام فقط ، وكنت

بالهند أثناء مرض أغا خان ، وسمعت مناقشات وجدال الاسماغيلية حول الإمام الذى يختارونه من بعد أغا خان . وسألنى بعضهم عن رأيى فى شخصية كل فرد من أفراد أسرة أغا خان ، ولكنى اعتذرت عن الإجابة عن شىء لا يعنينى أو الدخول معهم فى مناقشة موضوع هو موضوعهم ، واكتفيت بأن أعرف اتجاههم وآراءهم ، مما لا أستطيع أن أثبته فى هذا الكتاب ، وقد علم الجميع بعد وفاة أغا خان وصيته بتوليته حفيده كريم ، فبدأ بعض أفراد الطائفة يسخرون من هذا الاختيار لأسباب لا أستطيع أن أذكرها هنا لأنها شخصية خالصة ، وغضب إسماعيلية الشام ، فاضطر الأمير على خان إلى أن يسافر إليهم لإقناعهم بقبول وصية إمامهم الراحل خشية الانقسام بين الطائفة ، ولا ندرى ماذا ستأتى به الأيام المقبلة .

هكذا كان تاريخ الاسماعيلية ، تاريخ طويل حافل بالحوادث ، ملىء بالمفاجآت ، كثر فيه المد والجزر من انتشار سلطان الاسماعيلية ونفوذهم ، وكثرة تعرضهم للقتل والاضطهاد ، دافعوا عن وجودهم وكيانهم بطرق مختلفة ، منها سلاح العلم ، ومنها سلاح الغدر والاغتيال ، رماهم أعداؤهم بكل موبقة فلم يأبهوا ، وطعنهم أعداؤهم بالكفر والإلحاد فردوا هذه الطعنات ، ولا يزالون إلى الآن يتمتعون بوحدتهم ويقيمون شعائر مذهبهم ، ويحاولون اليوم تجديد مجدهم .

الفصل السابع

أسرار نظام الاسماعيلية

فى حديثنا عن تاريخ الطائفة الاسماعيلية ، رأينا كيف استطاعت أن تبسط سلطانها ونفوذها فى بلاد مختلفة من العالم الإسلامى وفى أزمنة مختلفة ، وفى الوقت الذى ظهر فيه عبيد الله المهدى ببلاد المغرب وأسس الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، كان له أتباع يدينون بطاعته وإمامته فى بلاد فارس ، وبلاد اليمن ، وفى العراق ومصر ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان للإسماعيلية نظم خاصة للدعاية لمذهبهم وإمامهم ، وكان لهم دعاة محنكون من ذوى المواهب الخاصة استطاع بهم إمامهم أن ينشر دعوته وعقيدتهم فى هذه البلاد التى كانت تدين بالطاعة للخليفة العباسى ، والحق أقول إنى لم أجد فى تاريخ العصور الوسطى فى دولة من الدول أو طائفة من الطوائف اهتماماً خاصاً بالدعاية وتنظيمها على النحو الذى وجدته عند طائفة الاسماعيلية ، فلا غرو أن أزعم أنهم أساتذة فن الدعاية فى العالم ، حقيقة كان للمعتزلة دعاة ينادون بآرائهم ، وكان للشيعة الاثنى عشرية دعاة يبشرون بالمهدى المنتظر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان للزيدية دعاة أيضاً ، ولكن دعاة

هذه الفرق لم ينظموا التنظيم الدقيق الذى كان للإسماعيلية ، ولذلك لم يكن لهذه الفرق من التاريخ ما للاسماعيلية ، وذلك بفضل الدعاية ونظمها ، وقد لمست من بعض مقابلاتى مع بعض المستشرقين الأمريكيين أنهم يريدون معرفة أسرار نظم الدعوة الاسماعيلية ، ونحن نعرف أن الأمريكيين يجيدون فن الدعاية ويتخذون لها وسائل مختلفة ، غير أنهم لم يبلغوا بعد ما بلغته دعاية الطائفة الاسماعيلية بالرغم من أدوات الدعاية الأمريكية والمخترعات الحديثة والدولارات الأمريكية .

جعل الاسماعيلية الدعاية من صميم عقيدتهم وفلسفتهم ، وتقوم فلسفتهم المذهبية على التأمل فى نظم الكون والمخلوقات التى تحيط بالإنسان وتطبيق هذه النظم كلها على الدين ، واستفادوا فى ذلك بكل الآراء التى قال بها الفلاسفة القدماء ، وبكل الديانات والعقائد القديمة ومزجوا ذلك كله بالدين الإسلامى ، فاستنبطوا بذلك عقيدة هى مزيج عجيب من كل الفلسفات وكل الديانات — وسنتحدث عن ذلك فى الفصل التالى — وأضافوا إلى ذلك كله فن الدعاية ، بحيث جعلوا الدعاة من حدود الدين ، وذلك إمعاناً منهم فى إسباغ الفضائل على هؤلاء الدعاة الذين يبشرون بالأئمة وبعقيدتهم المذهبية حتى يستطيع الداعى أن يوجه أتباع المذهب كيفما شاء ؛ وأن يكون كلامه لهم من صميم المذهب ، فلا يحاجه أحد ولا يخالفه إلا كل مارق عن المذهب ، فإسباغ شىء من التقديس على الداعى

كان من عوامل نجاح الداعى فى مهمته لما كان للدين من أثر قوى فى نفوس الجماهير . وذهب الأئمة إلى أبعد من ذلك بحيث أنى لا أغالى إن قلت إن حضارتهم فى العصر الفاطمى فى مصر كان أساسها الدعاية قبل كل شىء ، فهم لم يشجعوا الشعراء والأدباء إلا ليكونوا ألسنة لهم ، وهم لم يعملوا على الحصول على الطرائف والنفائس إلا ليباهوا بها أعداءهم ، وهم لم يسرفوا فى إقامة الحفلات والأعياد وما تبع ذلك من إقامة الموائد للشعب فى كل مناسبة إلا من قبيل الدعاية ، وكان لهم العذر فى ذلك كله ، إذ كان أعداؤهم محيطين بهم من كل جانب وكان لهم أعداء يتربصون بهم داخل دولتهم الواسعة المترامية الأطراف ، فكان عليهم أن يظهروا أمام هؤلاء الأعداء جميعاً بمظهر القوى الغنى المترف حتى يهابهم أعداؤهم ، كان ذلك بعد أن ظهر أئمة الاسماعيلية على مسرح الحياة السياسية ، وكونوا لهم دولتهم العتيدة التى عرفت بالدولة الفاطمية ، أما قبل ظهور هذه الدولة بينما كان الأئمة فى دور الستر ، فكان لا بد لهم من دعاة يدعون لهم سراً ويبشرون الناس بقرب ظهورهم ، حتى تم للإمام الاسماعيلى تأسيس ملكه ، فالدعاية إذن هى الوسيلة التى اتخذوها لتحقيق نجاحهم فى دور الستر وفى دور الظهور معاً ، ومن ثم كان اهتمامهم بأمر الدعاية وأمر الدعاة حتى جعلوا الدعاية من صميم المذهب الاسماعيلى .

نظم الاسماعيلية الدعاية تنظيما دقيقاً هو نفسه نظام دورة

الفلك ، فقد جعلوا العالم — الذى كان معروفاً فى عصرهم — مثل السنة الزمنية ، فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهراً ، وإذن فيجب أن يقسم العالم إلى اثنى عشر قسما ، وسموا كل قسم « جزيرة » ، ولا نعلم إلى الآن الأساس الذى قسموا بمقتضاه العالم إلى هذه الجزر ، فإنا نراهم أحياناً يطلقون جزيرة مصر ويريدون بها بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب معاً ، ويقولون جزيرة العراق ويقصدون بها بلاد العراق وبلوخستان ، ويطلقون على منطقة فارس وكرمان من إيران جزيرة فارس ، فتحديد الجزائر لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول إليه إلى الآن ، وكذلك نقول عن أسماء هذه الجزائر ، فقد حاول الأستاذ المستشرق و . إيڤانوف أن يذكرها ولكنه وجد اختلافات عديدة فى أسمائها ؛ ومهما يكن من شىء فإنهم جعلوا على كل جزيرة من هذه الجزر داعياً هو المسئول الأول عن الدعاية فيها ، وكان يطلق على هذا الداعى لقب « داعى دعاة الجزيرة » أو « حجة الجزيرة » .

والشهر ثلاثون يوماً ، ولذلك كان لكل داعى جزيرة ثلاثون داعياً نقيباً لمساعدته فى نشر الدعوة ، وهم قوته التى يستعين بها فى مجابهة الخصوم ، وهم عيونه التى بها يعرف أسرار الخاصة والعامة ، فكانوا بمثابة وزرائه ومستشاريه فى كل ما يتعلق بجزيرته .

واليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، اثنتى عشرة ساعة

بالليل ، واثنتى عشرة ساعة بالنهار ، فجعل الاسماعيلية لكل داعٍ نقيب أربعة وعشرين داعياً منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً كظهور الشمس بالنهار ، واثنا عشر داعياً محجوباً مستتراً استتار الشمس بالليل . وبعملية إحصائية بسيطة نجد أن عدد الدعاة الذين بثهم الاسماعيلية فى العالم كان حوالى ٨٦٤٠ داعياً ، فى وقت واحد ، وذلك بخلاف عدد آخر من الدعاة لا يشملهم هذا الإحصاء ، وهم الدعاة الذين يكونون دائماً مع الإمام فى مقره ، وكأنهم بمثابة القيادة العليا للدعوة . فلعل هذا العدد الضخم من الدعاة الذين بثهم الاسماعيلية فى بلاد العالم كان كافياً لتحويل عددٍ من الناس إلى المذهب الاسماعيلى واستطاعوا بهم أن يؤسسوا هذه الدول الاسماعيلية التى تحدثنا عنها أو القيام بهذه الحركات السياسية التى ذكرناها . كان لكل فئة من هؤلاء الدعاة عمل خاص لا يتعداه إمعاناً فى سرية الدعوة وحفظاً لنظمها ، فدعاة النهار الاثنى عشر فى كل جزيرة كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالبين وهم أصغر طبقة من درجات الدعاة ، كانت وظيفتهم أن يشككوا الناس فى عقيدتهم ولا يتجاوزون ذلك إلى أى عمل آخر ، كان عليهم أن ينتهزوا أية فرصة أمامهم بإلقاء الأسئلة على العلماء والفقهاء أمام جماهير الناس وكأنهم تلاميذ يريدون الإفادة من أساتذتهم ، دون أن يخالج الشك العلماء والفقهاء أو الجماهير المجتمعة للأخذ من هؤلاء العلماء أو الفقهاء ، كانت الأسئلة تدور حول مشكلات الدين أو تفسير

بعض الآيات المتشابهة فى القرآن الكريم واختلاف المفسرين فيها ، ويأخذ الداعى المكاسر فى مجادلة هؤلاء العلماء والفقهاء ومناقشته مناقشة علمية عنيفة حتى يظهر عجز العالم عن الجواب الصحيح ، أو تبدو منه أخطاء فيسخر منه الداعى المكاسر ويتركه ، وهنا يظهر الشك على كل ضعيف مزعزع العقيدة من الجماهير ، فيسرع إلى الداعى المكاسر يلتمس منه الجواب الشافى عن هذه الأسئلة التى طرحها والموضوعات التى ناقش فيها العلماء ، فلا يجد عند المكاسر سوى أسئلة أخرى تحيره وتزيد فى تزعزع عقيدته ، والمكاسر لا يفصح عن شىء وينكر معرفته بالجواب فى أول الأمر ، كانت أسئلة الداعى المكاسر مما لا يمكن أن يجيب عنها أحد ، فمثلا : لِمَ خلق الله العالم فى ستة أيام ؟ ولِمَ جعل الله السموات سبعاً ولم يجعلها أكثر أو أقل من ذلك ؟ لم وجب الغسل من المنى مع طهارته ، والاستنجاء من البول مع نجاسته ؟ ما معنى الحروف التى فى أوائل السور ؟ ومن هم حملة العرش الثمانية ؟ فهذه أمثلة لبعض تلك الأسئلة التى كان يوجهها الداعى المكاسر إلى العلماء وكأنه يريد أن يستفيد منهم ، ويوجهها إلى الناس وكأنه يشك فى العقيدة . وواضح أن الداعى المكاسر كان يختار اختياراً خاصاً ، ولا يسمح له بالمكاسرة إلا بعد امتحان عسير وتجارب كثيرة ، ونجد بعض كتب الاسماعيلية تؤلف فى اختيار الداعى المكاسر والشروط التى يجب أن تتوافر فيه

والخصال التي يجب أن يتحلى بها ، من ذلك أنه يجب أن يكون من نفس البيئة التي سيكاسر فيها ، ولد ونشأ بها حتى يكون معروفاً عند الجمهور ، ويجب أن يكون حسيباً ونسيباً بين قومه ، فالحسب والنسب يكسبانه بعض الاحترام ، وأن يكون معروفاً بالصدق والأمانة والتقى والورع ، فهذه الصفات تزيده احتراماً بين قومه ، فإذا وثق داعى الجزيرة فى شخص يتحلى بكل هذه الصفات بدأ فى تعليمه العلوم الإسلامية حتى يتبحر فيها ، فإذا فرغ من ذلك ، أخذ يلقنه مسائل اختلاف المذاهب وآراء أهل الملل والنحل كلها من فرق إسلامية وغير إسلامية ، ويبرز له مواطن الضعف فى كل مذهب وفى كل رأى ، ثم يعلمه كيف يجادل فى اختلاف هذه الآراء وكيف يناقش أصحابها ، فإذا تم له ذلك يبدأ الداعى فى تدريبه على تفهم نفسية كل جماعة من الجماعات ، وكيف يخاطب كل طائفة من الطوائف حتى يستميل الناس إليه ، فإذا أتقن الشخص كل هذه الأمور وتدرب عليها ، ونجح فيها النجاح الملحوظ سمح له الداعى أن يكاسر الفرق الأخرى دون أن يشعر أحداً بأنه اسماعيلى المذهب بل يجب أن يكتم ذلك كتماناً تاماً ، ويستر مذهبه وعقيدته ستراً تاماً حتى لا يفطن أحد إلى ما يرمى إليه أو يشك فيه أحد ، كان عليه أن يتظاهر أمام جمهور أهل السنة بأنه سنى متعصب ، ويتظاهر أمام أهل الشيعة بأنه شيعى متطرف ، وأمام الصوفية بأنه من الأقطاب ، وأمام المسيحيين

بأنه منهم ، وهكذا كان يخاطب كل قوم حسب عقيدتهم ومذهبهم وعقليتهم ، ولذلك يجب أن يكون المكاسر ذكياً ذا فراسة حتى لا يخطئ في معرفة نفسية المجتمع أو تقدير الناس الذين يخاطبهم ، فإذا فرض ووجد المكاسر أمامه خصما عنيداً أكثر منه علماً وتبحراً في مختلف الفنون ، فكان على المكاسر أن يلج في المسائل الفلسفية العميقة التي لا حد لها والتي لا يفهمها العامة ، ويدخل معه في مناقشات باطنية هي من أخص خواص الفلسفة الاسماعيلية التي لا يعرفها غير الدعاة . وبذلك فقط ينجو المكاسر من الظهور بمظهر الضعف أمام العامة ، بل ربما عظم شأنه في أعينهم لأنه يتحدث عن أشياء لا يفهمونها ولا يعرفون كنهها ، هكذا كان شأن الداعي المكاسر أو « الداعي المكالب » الذي كانت مرتبته أقل مراتب النظام الاسماعيلية للدعاية ، فإذا كان هذا هو شأن أصغر الدعاة استطعنا في سهولة أن ندرك ما كان عليه أمر كبار الدعاة على اختلاف درجاتهم وتباين مراتبهم .

إذا نجح الداعي المكاسر في تشكيك شخص من الأشخاص، وكان هذا الشخص ممن يريدون الوصول إلى معرفة الحقيقة ، صادقه الداعي المكاسر مدة ، وألح عليه في التشكيك حتى يزعزعه نهائياً عن مذهبه ، وأخيراً يتلطف به الداعي ، ويعلن له أنه سيعرفه بمن عنده علم الحقيقة ، ثم يتركه مدة نهب الأفكار والآراء ، ويحاول الداعي المكاسر أن يختفي عنه طوال هذه المدة ، ثم

يذهب إليه بعد ذلك ويأخذه إلى أحد الدعاة الذين هم أرقى منه مرتبة ، ويصفه له المكاسر بأنه العالم الحبر الذى على يديه يزول الشك من النفس لغزارة علمه وسعة اطلاعه وحميد خلقه ، فيتقرب هذا الداعى إلى الشخص ويلاطفه حتى يطمئن إليه ويأخذ فى التحدث إليه فى رفق ويفاتحه فى لين دون أن يظهر له صفته المذهبية أو شيئاً من عقائده ، بل يكتفى بأن يفسر له بعض المشكلات والمسائل المذهبية تفسيراً هو أقرب إلى آراء أهل الجماعة، ويلمح له ببعض التأولات الباطنية التى لا ضير من كشفها وذيوعها ، فإذا رأى هذا الداعى منه إصراراً على الوصول إلى معرفة الحقيقة كاملة ، ورغبة فى التزود بمثل هذه التأويلات الباطنية أحاله إلى الداعى المأذون وهو من دعاة الليل الذى يبدأ بأخذ العهود والمواثيق المؤكدة عليه بأن لا يفشى سراً ، ولا يطلع على آرائه أحداً من الناس ، فإذا وثق به بدأ يكاشفه ببعض الأسرار الخفيفة التى لا ينزعج منها أحد ولا ينفر منها مؤمن ، ولا يزال يتدرج به من رأى إلى رأى ومن مسألة إلى مسألة ، حتى يطمئن الداعى المأذون إليه تمام الاطمئنان ، ويطمئن المستجيب إلى الداعى ، عندئذ ينقله إلى الداعى الذى هو أرقى منه رتبة ، فيبدأ بأن يصرح له بأسرار أشد تعقيداً ، وهكذا يتدرج المستجيب بين الدعاة حتى يسمح له أخيراً بحضور مجالس داعى دعاة الجزيرة وهو كبير دعاتها الذى كان له وحده الحق فى أن يعلم الناس

التأويلات الباطنية للدين والقرآن والحديث ، كما كان له الحق فى تعليم الدعاة فلسفة الدعوة المذهبية (أى علم الحقيقة) فإن سمح للمستجيب أن يستمع إلى محاضرات داعى دعاة الجزيرة فقد هيأ نفسه بذلك لأن يكون داعياً ، حقيقة كان داعى دعاة الجزيرة يلقى أحاديث على العامة الذين أخذت عليهم العهود والمواثيق دون أن يصلوا بعد إلى درجة عالية فى علوم الدعوة ، ولكن هذه المحاضرات كانت بعيدة عن الأسرار الاسماعيلية العليا .

هكذا نظم الاسماعيلية دعاتهم تنظيما دقيقاً جداً بأن جعلوا لكل داعية عملا خاصاً لا يتعداه ، واختاروا هؤلاء الدعاة اختياراً دقيقاً وأعدوهم هذا الإعداد حتى يستطيعوا أن يقوموا بما يعهد إليهم ، وإمعاناً منهم فى تكريم الدعاة وإسباغ المناقب عليهم أطلقوا عليهم « حدود الدين » الذين يجب أن يعرفهم ويتوالاهم جميع المؤمنين ، بل قالوا إن الملائكة هم هؤلاء الدعاة ، ولذلك قال أحد شعرائهم من الدعاة :

أنا آدمى فى الرواء حقيقتى　　مَلَكٌ تبين ذاك للمسترشد

وقال المؤيد فى الدين داعى الدعاة أيضاً :

ورواﺋﻰ جسم ومحصول جسمى　　مَلَكٌ دونه الخطوب الجسام

فأنت ترى الشاعر يعبر عن حقيقة نفسه حسب عقيدته ومرتبته فى الدعوة بأن مظهره مظهر آدمى ، ولكنه من الملائكة فى الحقيقة ، وهذا بالطبع مما ذهبت إليه العقيدة الاسماعيلية .

أما الدعاة الذين يكونون « القيادة العليا » للدعوة ، والذين يكونون حول الإمام الاسماعيلى دائماً ، فإن الإمام يختار من دعاة الجزائر أقواهم بناناً ، وأصدقهم جناناً وأغزرهم علماً ، فيجعله فى مرتبة « داعى الدعاة » فيكون هو المالك لجماعة الدعاة ، وإليه الإشراف على الدعوة فى جميع الجزائر ، وهو الواسطة بين دعاة الجزائر وبين الإمام ، فداعى الدعاة إذن لا يستتر بل هو معروف بين الدعاة جميعاً وبين رجال حاشية الإمام فى أدوار الستر والظهور ، لأن مرتبته ليست من المراتب السرية ، وكان عليه أن يعقد مجالس الحكمة التأويلية على اختلاف درجاتها ، فكانت هناك مجالس تعقد للخاصة ، وأخرى للعامة ، ومجالس تعقد للنساء وهكذا ، ويذهب المقريزى إلى أن مرتبة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية فى مصر ، بمعنى أن هذه الدولة هى التى جعلت وظيفة عمومية هامة للدعاية المذهبية دون غيرها من الدول ، والمقريزى على حق فى هذا القول لأنه لم يحدث فى دولة من الدول فى العصور الوسطى أن خصص مثل هذا المنصب للدعاية فى داخل الدولة وفى خارجها .

ومع مرتبة داعى الدعاة كانت هناك مرتبة أخرى هى مرتبة «الحجة» ويقال لصاحبها «حجة الإمام» وكان الإمام أحيانا يولى مرتبة داعى الدعاة ومرتبة الحجة لشخص واحد ، فقد كان المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ داعيا للدعاة وحجة فى

الوقت نفسه ، وأحياناً أخرى كان يجعل كل مرتبة لشخص ، وفى هذه الحالة يستر اسم صاحب مرتبة الحجة فلا يعرفه أحد حتى داعى الدعاة نفسه . فالمرتبة إذن مرتبة سرية فى أغلب الأحيان ، ولذلك لم نعرف سوى أفراد قلائل ممن شغل هذه المرتبة طوال تاريخ الاسماعيلية ، وهناك مرتبة سرية أخرى هى مرتبة « باب الأبواب » ولا يعرف شاغل هذه المرتبة إلا الإمام فقط ، وقد وصف أحد علماء الاسماعيلية هذه المرتبة بقوله « وحد الباب هو من الحدود الصفوة واللباب فهو أفضل الحدود وهو حد العصمة ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد » أى أنه يصرح بأنه فى تاريخ الاسماعيلية الطويل لم يصل إلى هذه المرتبة إلا أفراد قلائل يعدون بالآحاد ، ويقول عالم آخر « باب الأبواب هو باب صاحب الزمان الذى يؤتى منه إليه وحجته على الخلق وحامل علمه وصاحب دعوته » فمرتبة باب الأبواب أو « الباب » فقط مرتبة رفيعة تلى مرتبة الإمام الدينية مباشرة ، وهى مرتبة سرية ، وإلى الآن لم يكشف عن أولئك الذين شغلوا هذه المرتبة ولا عن العمل الذى كانوا يقومون به ، غير أن الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى ذكر فى كتابه « راحة العقل » هذه المرتبة فى ترتيب مراتب الدعوة فقال « الباب وله مرتبه فصل الخطابة » ولم يفصل شيئاً أكثر من ذلك .

ويخيل إلى أن مرتبة باب الأبواب أخذت من كتابات

اينوميس أحد كتاب الأدب الكنسى فى القرن الرابع الميلادى الذى قال « إن عيسى باب معرفة الله » أو من قول الشيعة إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، ومهما يكن من شىء فإن هذه المرتبة لا تزال غامضة إلى الآن . ومثلها فى ذلك أيضا مرتبة أخرى هى مرتبة « داعى البلاغ » التى قيل إنها مرتبة الاحتجاج بالبرهان فى إثبات الحدود العلوية ومراتبها وتعريف المعاد ، فهى من المراتب السرية التى فى مركز القيادة العليا ، ولم يفصل مؤرخو الاسماعيلية وعلماؤها أمر هذه المرتبة .

وعلى ذلك نستطيع أن نرتب مراتب كبار الدعاة الذين كانوا يلازمون مقر الإمامة على النحو الآتى :

أولا : مرتبة باب الأبواب ، وهى أعلا المراتب كلها وهى مرتبة سرية .

ثانيا : مرتبة الحجة .

ثالثا : مرتبة داعى البلاغ .

رابعاً : مرتبة داعى الدعاة أو الداعى المطلق : وهى أعلا مرتبة ظاهرة .

هذه مراتب الدعاة فى النظام الاسماعيلى الذى وضع للدعاية ، وقد اجتهدوا أن لا يخلو بلد من دعاتهم حتى إن المعز لدين الله الفاطمى قال : إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ولا يظنون أنا

لانعني إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لـكنا قد ضيعنا من بعد عنا ، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد ، ولـكننا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا » . وبفضل هذا التنظيم انتشرت الدعوة الاسماعيلية فى جميع الأقاليم وبين كل الطبقات ، وقوى نفوذ الاسماعيلية فى بعض البلاد على نحو ما ذكرناه من قبل ، كما أننا تحدثنا عن لون آخر من ألوان الدعاية فإن الإمام الفاطمى كان يستدعى أبناء كبار رجال الدولة ووجوهها ليقيموا معه فى القصر ، ويربيهم تربية خاصة حتى إذا أصبحوا فى مقام الرجال ولاّهم الإمام الإمارات والولايات ، أو استعان بهم فى مهامه ، وبذلك استطاع أن يطمئن إلى ولاء هذه الإمارات والولايات له دائما وعدم الخروج عن طاعته ، فإن هؤلاء الولاة كانوا بمثابة أبناء الإمام بما غرسه فيهم من تعاليم منذ الصغر فنشأوا على حبه وطاعته .

أما النظام الذى وضعه الحسن بن الصباح لدعوته الجديدة فـكان ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول الخاص بالدعاية الدينية فهو شبيه إلى حد بعيد بما كان عليه أيام الفاطميين بمصر ، ولـكن عدد الدعاة تقلص ونقص بأن جعل « الشيخ » فى مرتبة داعى الدعاة وله ثلاثة

نواب فقط فى الجبل وخوزستان والشام ، ومع كل نائب عدد غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للعقيدة الاسماعيلية النزارية .

أما القسم الثانى فهو خاص بالفدائيين ، وهؤلاء كانوا يتبعون شيخ الجبل نفسه مباشرة ، كانوا شبه حرس خاص له وهو فى الوقت نفسه قائدهم الأعلى يتلقون منه الأوامر مباشرة ، ولكنهم على ثلاث درجات : أولا ، مرتبة الرفاق وهم أشبه شىء برؤساء الفرق الذين كانوا يدربون الفدائيين ويشرفون على حاجياتهم ومطالبهم ، والمرتبة الثانية هى مرتبة الفدائيين وهم المجندون للقيام بما يأمرهم به شيخ الجبل بعد أن تم تدريبهم وأظهروا استعدادهم للتضحية فى سبيل إمامهم ومذهبهم ، أما المرتبة الثالثة فهى مرتبة المستجيبين وهم الذين فى دور التدريب والتعليم وهؤلاء كانوا من الشبان الذين لايزيد عمر الواحد منهم على عشرين عاما ، وهؤلاء كانو افى صغرهم يدربون بإشراف شيخ الجبل فى قصره .

ونفس هذا النظام الذى وضعه ابن الصباح فى فارس طبقه شيوخ الجبل فى بلاد الشام ، وساروا على نهجه .

أما الآن فالاسماعيلية البهرة يجعلون فى كل بلد من البلدان التى فيها جماعة منهم رجلا من رجال الدين الذين تخرجوا فى « الجامعة السيفية » بمدينة سورات ، ويطلقون عليه لقب « عامل » وهو الذى يجمع من الطائفة « الخمس » أى خمس

ما يكسبه كل إسماعيلى سنوياً ، « السلة فطرة » أى الهدايا التى تقدم للداعى المطلق بمناسبة عيد الفطر . أو غيره من المناسبات ، ويقوم على كل شئونهم الدينية من زواج وطلاق وصلاة . . الخ . وللاسماعيلية النزارية كذلك داعية فى كل مجتمع يعيشون فيه يطلقون عليه لقب « المكى » وهو يقوم أيضاً بما يقوم به « العامل » عند طائفة البهرة ، ولا وجود للفدائيين الآن ولا للنظام السرى الذى كان معروفاً من قبل ، واختفت ألقاب ومراتب الدعوة القديمة ولم يبق منها سوى لقب الداعى المطلق الذى لداعى البهرة ، والحق أن اختفاء الألقاب عند الاسماعيلية النزارية كان منذ قيام الحسن بن الصباح بدعوته فى فارس ، إذ اضطره نظامه الجديد إلى بعض التغييرات فى العقائد والنظام الاجتماعى والسياسى ، وقد قام صراع بين التيارات المذهبية الاسماعيلية القديمة بما فيها من مصطلحات عربية ، وبين المصطلحات الفارسية الجديدة التى أتى بها ابن الصباح ، وهى مصطلحات متأثرة إلى حد بعيد بالمصطلحات الصوفية ، فاختفت درجات الدعاة التى كانت فى عصور دور الستر وفى العصر الفاطمى مثل الحجة وداعى الدعاة وداعى البلاغ . . . الخ ، وأصبح لقب « پير » بدلا من الحجة ، ولقب « مُلاً » أو « آخوند » بدلا من الداعى . وبعد الغزو المغولى وتشتت الاسماعيلية فى آسيا الوسطى والهند ، وأصبح عبء جمع شمل الطائفة يقع دائماً على البير ، ولذلك لا ندهش أن نجد

« البير » كان عادة أقرب المقربين إلى الإمام إن لم يكن من أقرب أقاربه إليه وأنه جوهر الإمامة ، نقول ذلك بالرغم من المعلومات الضئيلة التى وصلتنا عن النزارية بعد تشتتهم على أيدى المغول ، فإن المؤلفات الاسماعيلية عن تلك الفترة لم تصل إلينا ، ويغلب على الظن أن نشاط الدعاة لنشر الدعوة المذهبية قد انتهى تقريباً ، وكرست الجهود إلى إنقاذ بقايا الاسماعيلية ولم شعثهم ، أما الاسماعيلية فى فارس إبان حكم الصفويين الذين اتخذوا عقيدة الشيعة الاثنى عشرية مذهباً رسمياً للدولة فلا نعرف عن نظمهم شيئاً إلا أن « البير » كان فى زى الصوفية وأنه كان يخلط التعاليم الاسماعيلية النزارية بالآراء الصوفية .

الفصل الثامن

عقائد الاسماعيلية

لعلك لاحظت مما سبق أن العقائد الاسماعيلية كانت السبب الأول لظهور طائفة الاسماعيلية ، فلولا أن فريقا من الناس اجتمعوا على رأى فى الإمامة يخالف ما قال به الآخرون ، ودعوا إلى رأيهم هذا بالوسائل والطرق السرية التى أشرنا إليها ، لولا ذلك كله ما وجدت هذه الفرقة ، وكان الخلاف فى أول الأمر بسيطاً لا يعدو أن يكون حول الإمامة ، ولكنه استفحل بعد ذلك ، وبمضى الزمن أدخلت آراء جديدة وأصول للعقيدة تبعد عما كانت عليه الطائفة قبل خروجها عن حلبة التشيع العامة ، وسأتحدث الآن عن عقائد الاسماعيلية بعد ان تبلورت ووضع فيها علماء الدعوة كتبا عرفت باسم « كتب الحقيقة » ، ولكنى قبل أن أتحدث عن هذه العقائد أرى أن أشير إلى عدة نواحٍ رئيسية هامة فى دراسة العقائد الاسماعيلية ، فأول ما يكون من ذلك أن العبادة العملية (أى علم الظاهر وهو ما يتصل بفرائض الدين وأركانه) والعبادة العلمية (أى علم الباطن من تأويل وغيره) والمثل العليا للتنظيمات الاجتماعية ، والمثل العليا للإدارة السياسية ،

هذه كلها كانت عند الاسماعيلية من صميم العقائد ، وكل من هذه النقط الأربع الرئيسية فى حياة الاسماعيلية متداخل فى الأخرى تداخلا كليا ، وتعتمد كل واحدة على الأخرى اعتمادا تاما بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بينها أو أن نتخذ نقطة واحدة منها على أنها عقيدة الاسماعيلية ، ولذلك أخطأ القدماء فى إطلاق لقب «الباطنية» على فرقة الاسماعيلية ، لأن هذه الفرقة تدين بالباطن ، والاسماعيلية يقولون بالباطن حقا ولكنهم يقولون بالظاهر أيضاً ، وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معا ، بل كفروا من اعتقد بالباطن من دون الظاهر أو بالظاهر من دون الباطن ، وفى ذلك يقول الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى « من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا ، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا » . فالاسماعيلية لا يقولون بالباطن فقط كما وهم القدماء ، بل إن الظاهر أساسى من أسس عقيدتهم أيضاً . وقد رأينا تنظيمهم للدعاية التى تغلغلت فى نظمهم الاجتماعية والساسية فأصبحت نظمهم تتوقف على معرفة الظاهر والباطن ، كما يتوقف الظاهر والباطن على تلك النظم ، غير أن تطور الأحوال الاجتماعية والسياسية بمرور السنين وتغيرها حسب مقتضى الحال جعل العقيدة الاسماعيلية متطورة أيضاً ، بل اختلفت العقيدة الاسماعيلية فى كل قطر عما هى عليه فى قطر آخر فى الوقت الواحد ، ففى زمن واحد نستطيع أن نتبين عقائد مختلفة متضاربة تنسب كلها

إلى الاسماعيلية ، وهذا الاختلاف عندى هو نتيجة لما كان يذيعه الدعاة المختلفون فى البلدان المختلفة ، فمهما أخذ هؤلاء الدعاة عن مصدر واحد ، فلا شك أنهم مختلفون فيما بينهم اختلافا كبيراً بحسب شخصية كل واحد ، وحسب مقدار فهمه للعقائد أو تأويله الباطنى للأمور الدينية كانوا مختلفين فى ثقافتهم ، ومختلفين فى عقلياتهم ، أضف إلى ذلك اختلاف المجتمعات التى يعيشون فيها ، فمنهم من كان يدعو بين الدهماء والسذج ، ومنهم من كان يدعو بين جمهور مثقف متحضر ، فكان لا بد أن نجد اختلافا بين هؤلاء الدعاة فيما كانوا يذيعونه على الناس ، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر أن الداعى النخشبى — وكان من الدعاة فى الدولة السامانية وقتل سنة ٣٣١ هـ وضع كتابا فى فلسفة العقيدة الاسماعيلية سماه كتاب « المحصول » ، وفى نفس الوقت وضع الداعى أبو حاتم الرازى الداعى ببلاد الديلم كتابه « الإصلاح » خالف فيه آراء زميله النخشبى مخالفة تامة ، ثم جاء الداعى أبو يعقوب السجستانى وكان ببخارى وقتل سنة ٣٣١ هـ وألف كتاب « النصرة فى شرح ما قاله الشيخ الحامد فى كتاب المحصول » انتصر فيه للداعى النخشبى وخالف زميله أبا حاتم الرازى ، ولكنه أتى بآراء جديدة لم ترد عند الشيخين السابقين ، ثم جاء بعده داعى العراقين وأكبر فلاسفة الدعوة الاسماعيلية على الإطلاق وهو حميد الدين الكرمانى المتوفى بعد سنة ٤١١ هـ

فألف كتابه « الرياض » حاول فيه التوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة ، فظاهر إذن اختلاف هؤلاء الدعاة الذين ذكرناهم وهؤلاء يعدون شيوخ الدعوة وكبار علمائها فى القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من الهجرة ، وعنهم أخذ غيرهم من الدعاة والعلماء ، فإذا كان شيوخ الدعوة أنفسهم قد اختلفوا على هذا النحو فماذا نقول عن الدعاة الآخرين ، وإذا قرأنا كتب هؤلاء الدعاة وقارناها بما كتبه جعفر بن منصور اليمن أو ما كتبه القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى سنجد خلافاً شديداً جدا بين ما قاله هؤلاء الدعاة الذين كانوا فى فارس وبين العلماء الذين كانوا مع الأئمة فى بلاد المغرب ، وإذا قارنا بين آراء هؤلاء الدعاة والعلماء جميعا وبين ما كان يدعو إليه ابن حوشب الملقب بمنصور اليمن فى بلاد اليمن ولا سيما فيما جاء فى كتاب « الكشف » أو فى « رسالة الرشد والهداية » سنجد اختلافاً آخر ، هذا كله يدل على أن عقائد الاسماعيلية تختلف من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن . ونسوق مثالا آخر للتدليل على ما ذهبنا إليه ، فهناك بعض أقوال وردت فى كتاب « المجالس والمسايرات » — الذى جمع فيه القاضى النعمان بن محمد ما سمعه أو شاهده عن الإمام المعز لدين الله الفاطمى — وهذه الأقوال إن دلت على شىء فإنما تدل على مقدار غضب الإمام المعز على بعض الدعاة الذين غالوا فى الأئمة ، فقد جاءه أحد دعاته فى جزيرة فارس ،

وسأل الداعى إمامه عن أمر من أمور الدين ، فلما أجابه المعز لدين الله أظهر الداعى شيئاً من الدهشة بدت على وجهه ، فسأله المعز عن سبب ما اعتراه ، أجابه الداعى بأن الاسماعيلية فى فارس يقولون برأى آخر يخالف ما ذهب إليه الإمام نفسه ، وذكر الداعى ما عليه الاسماعيلية فى جزيرة فارس ، فاستعظم المعز لدين الله أن يقول أتباعه بهذه المقالة الشنيعة واستنكرها .

مثال آخر نسوقه لطرافته ، ذلك أن الدعاة فى مصر فى عهد المعز لدين الله وعهد العزيز بن المعز أذاعوا أن الأئمة يعرفون الغيب ، وأنهم يعرفون حركات النجوم والكواكب ومنها يستطيعون معرفة ما يريدون معرفته ، ثم إن عندهم كتاباً يسمى « بالجفر » ورثوه عن الإمام جعفر الصادق يستطيعون به معرفة هذه الغيبيات ، حتى إن أحد علمائهم وهو جعفر بن منصور اليمن وضع لهم كتاب « الفترات والقرانات » فيه ما يعلمون به الغيب ، أذاع الدعاة ذلك كله فانقسم الناس فى مصر بين مصدق ومكذب ، ومنهم من سخر من معرفتهم الغيب هذه ، حتى إن العزيز بالله صعد المنبر يوم جمعة ليخطب الناس على عادة الأئمة الفاطميين فوجد على المنبر رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب ... فقل لنا كاتب البطاقة

فهذا يدل على ما كان بين المجتمع المصرى فى ذلك الوقت من تبلبل فى الفكر حول معرفة الأئمة للغيب ، واستشارتهم النجوم لمعرفة المستقبل ، هذه البلبلة التى صورها الشاعر الأمير تميم ابن المعز لدين الله الفاطمى نفسه فى إحدى قصائده وفيها يقول مخاطباً الإمام العزيز :

لما اختلفنا فى النجوم وعلمها ... وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ... ومن مكثر فيها الجدال ولا يدرى
فعلمتنا تأويل ذلك كله ... بما فيه من سر وما فيه من جهر
وأخبرتنا أن المنجم كاهن ... بما قال، والكهان من شيعة الكفر
وإن جميع الكافرين مصيرهم ... إلى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف وريبة ... وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن ... يجلى ظلام الشك من كل ذى فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة ... وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها ... تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده ... تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما ... رووه عن المختار جدهم الطهر

فناظم هذه الأبيات ابن إمام من أئمة الاسماعيلية ، وأخو إمام من أئمتهم ، وكادت تؤول إليه الإمامة لولا بعض أمور أخذها عليه أبوه ، ومع ذلك فكان من الذين حاروا فى أمر معرفة

الأئمة للغيب ، واستطلاع ذلك من حركات الكواكب والنجوم ، إلى أن جلاها له أخوه العزيز ، وأزعم أن رجوع الإمام العزيز عن ادعاء معرفة الغيب إنما ترجع إلى شخصية المصريين فلولا كثرة فكاهاتهم وتندرهم بالأئمة الاسماعيلية فى هذه المقالة ما رجع العزيز عنها ونفاها عن الأئمة بالرغم مما كتبه الاسماعيلية فى ذلك قبل استقرار الأئمة بمصر ، فالنكت المصرية اللاذعة التى أقول إنها سلاح من أسلحة مقاومتهم ، كانت من العوامل الفعالة فى تغيير العقيدة الاسماعيلية وتطورها فى مصر بحيث أصبحت عقائد الاسماعيلية فى الدور الفاطمى المصرى تختلف اختلافاً ملحوظاً عن عقائد الاسماعيلية فى اليمن أو فى فارس فى نفس هذا العصر .

ومادام الأمر كذلك فى اختلاف العقيدة الاسماعيلية فالحديث عنها ليس سهلا ميسوراً مثل الحديث عن العقائد الثابتة ، ومع ذلك كله فهناك بعض أصول اتفق عليها الاسماعيلية جميعاً منذ وجدت الاسماعيلية إلى الآن ولم يختلف فيها اثنان ، فمن هذه الأصول القول بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، والنص على الإمام يكون من الإمام الذى سبقه بحيث تتسلسل الإمامة فى الأعقاب ، أى أن ينص الأب على إمامة أحد أبنائه . هذا الأصل هو مبدأ وجود طائفة الاسماعيلية ، فكما ذكرنا من قبل كان هذا هو المبدأ الذى انشقت بسببه الاسماعيلية عن الشيعة عقب وفاة جعفر الصادق ،

واعتراف أكثر شيعته بإمامة ابنه موسى الكاظم ، فقد أبا بعضهم الاعتراف بإمامة موسى ، ونادوا بإمامة محمد بن إسماعيل لأنه فى نظرهم صاحب النص . ومن الغريب أن أئمة الاسماعيلية أنفسهم لم يحترموا هذا الأصل الأساسى من أصول العقيدة ولم يتقيدوا به لا فى العصور القديمة ولا فى عصرنا الحديث ، فالمعز لدين الله نص على ولاية ابنه عبد الله من بعده ، ولكن عبد الله توفى فى حياة أبيه ، فنص العزيز مرة أخرى على ولاية ابنه العزيز ، نخالف بذلك الأساس الذى قامت عليه الطائفة الاسماعيلية فى أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ إنما تنتقل من أب إلى ابن ، وفى عصرنا الحديث نص أغا خان الثانى على إمامة ابنه شهاب الدين شاه ، ولكن شهاب الدين توفى فى حياة أبيه فنص أغا خان الثانى على ابنه الذى تولى الإمامة وعرف بأغا خان الثالث ، وقد رأينا أغا خان الثالث يحرم ولديه على خان وصدر الدين خان من الإمامة وينص على حفيده « كريم » الذى لقب بأغا خان الرابع وهو الإمام الحالى للطائفة ، وهذا كله يدلنا على أن هذا الأصل من أصول المذهب الاسماعيلى أصبح نظرياً فقط بمجرد أن أصبح للاسماعيلية دولة سياسية وتدخلت التنظيمات السياسية فى العقيدة فكيفتها حسب ما أملته الظروف السياسية .

وبالرغم من خروج الأئمة أنفسهم على مبدأ « النص على الإمام » لأمور اقتضتها الاعتبارات السياسية ، فالإمامة كانت

ولا تزال المحور الذى تدور عليه كل العقائد الاسماعيلية والفلسفة الاسماعيلية ، ذلك أنهم جعلوا ولاية الإمام الركن الأساسى لجميع أركان الدين ، فدعائم الدين عندهم منذ أول أمرهم وفى الدور الفاطمى بمصر وعند طائفة البهرة اليوم هى الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية ، على أن الولاية هى أفضل هذه الدعائم ، فإن أطاع الإنسان الله تعالى ورسالة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقام بأركان الدين كلها وعصى الإمام أو كذب به فهو آثم فى معصيته وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة الرسول ، ويقول فى ذلك القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى فى كتابه « دعائم الإسلام » ، وهو أقوم كتاب فى فقه المذهب الاسماعيلى : روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه أنه سئل ما الإيمان وما الإسلام ، فقال : الإسلام الإقرار ، والإيمان الإقرار والمعرفة ، فمن عرّفه الله نفسه ونبيه وإمامه ثم أقر بذلك فهو مؤمن » كما وضع الاسماعيلية كتباً كثيرة تدور كلها حول نقطة واحدة هى أن من أطاع الإمام فقد أطاع الله ، ومن عصى الإمام فقد عصى الله ، وأن بالإمام يعبد الله وبه يطاع الله وبه يعصى الله . فالولاية هى طاعة الإمام ومعرفته ، ومن الحق أن نقول إن هذه العقيدة فى ولاية الإمام ليست مقصورة على طائفة الاسماعيلية ، إنما يقول بها الشيعة الاثنى عشرية ، كما قال بها غلاة الشيعة ، فجميع فرق الشيعة على اختلاف آرائها وتباين عقائدها توجب ولاية الإمام ، وتفسر الآية القرآنية الشريفة « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولى الأمر منكم » بأن أولى الأمر هم الأئمة ، ولكل فرقة من الفرق إمام يحملون إليه هذا التفسير ، وحاولت كل فرقة أن تثبت الإمامة فى أئمتها من دون أئمة الفرق الأخرى ، بل كثيراً ما هاجمت فرقة قول الفرق الأخرى فى ولاية الإمامة ، مثل محاولة دعاة الاسماعيلية التهكم بفكرة دخول الإمام محمد بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر للشيعة الموسوية (الاثنى عشرية) السرداب ، وأنه سيظل بهذا السرداب حتى يخرج يوم القيامة ، كما طعن علماء الشيعة الاثنى عشرية فى أئمة الاسماعيلية وطعن الاسماعيلية والاثنا عشرية فى أئمة الغلاة ، ومهما يكن من شيء فإن عقيدة الإمامة أقدم من وجود الاسماعيلية ، وتشترك فيها جميع فرق الشيعة ، ومن هنا جاءت الآراء الشيعية عن الإمامة واحدة تقريباً ، فهم يفسرون بعض الآيات القرآنية بأن المقصود بها الأئمة من أهل البيت ، فقوله تعالى « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » وقوله تعالى « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » فهذه الآيات وغيرها وردت عن الأئمة من أهل البيت ، يشترك فى هذا القول الاسماعيلية والاثنا عشرية ، ولكن الاسماعيلية جعلوا للأئمة صفات لم تعرفها فرق الشيعة الأخرى ، وهى صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة لا تمت إلى البشرية بصلة . بالرغم من إلحاح كتاب الاسماعيلية فى القول بأن الأئمة من البشر وأنهم خلقوا من الطين

ويتعرضون للأمراض والآفات والموت مثل غيرهم من بنى آدم ، ولكننا نجد فى تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو « وجه الله » ، « ويد الله » « وجنب الله » وأنه هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار ، وأنه هو « الصراط المستقيم » و « الذكر الحكيم » « والقرآن الكريم » إلى غير ذلك من الصفات ، ولهم فى ذلك كله أدلة يسوقونها لكل صفة من الصفات ، فمثلا يقولون : إن الإنسان لايعرف إلا بوجهه ، ولما كان الإمام هو الذى يدل العالم على معرفة الله ، فبه إذن يعرف الله ، فهو وجه الله ، أى الذى به يعرف الله ؛ وأن اليد هى التى يبطش بها الإنسان ويدافع بها عن نفسه ، والإمام هو الذى يدافع عن دين الله ويبطش بأعداء الله فهو على هذه المثابة يد الله ، وهكذا نقول عن بقية الصفات التى خلعوها على الإمام ، ولكن الاسماعيلية الذين تحدثوا عن الإمام على هذا النحو ، وعن الله سبحانه وتعالى : نراهم قد جردوا الله سبحانه وتعالى من كل صفة ونزهوه التنزيه كله ، فتوحيد الله عندهم هو بأن ينفى عنه سبحانه جميع مايليق بمبدعاته التى هى الأعيان الروحانية — ومخلوقاته — التى هى الصور الجسمانية — من الأسماء والصفات ؛ وأن نفى المعرفة هو حقيقة المعرفة وسلب الصفة هو نهاية الصفة ؛ فأسماء الله الحسنى التى نسبها الله تعالى لنفسه فى القرآن الكريم لا تقال لله تعالى ، بل جعلوها للعقل الكلى الذى تحدث عنه الفلاسفة ، ووصفوا العقل

الـكلى بكل صفات الـكمال على نحو ما ذكره الفلاسفة الأقدمون تماماً ، وصبغوا هذه الآراء والأقاويل القديمة بالصبغة الإسلامية ، فنسبوا أسماء الله الحسنى إلى العقل الـكلى ، وأطلقوا على العقل الـكلى أيضاً اسم « المبدع الأول » وأن هذا المبدع الأول أو العقل الـكلى هو الذى رمز إليه الله تعالى « بالقلم » فى الآية القرآنية « نون والقلم وما يسطرون » وعلى هذا فالقلم أو المبدع الأول أو العقل الـكلى هو الخالق المصور الواحد القهار ، الجبار ، العزيز ، المذل ، العلى القدير .. الخ ، وأنه هو الذى أبدع النفس الـكلية أو المبدع الثانى الذى رمز إليه فى القرآن الـكريم « باللوح المحفوظ » وجعلوا للنفس الـكلية جميع الصفات التى للعقل الـكلى إلا أن العقل الـكلى كان أسبق فى الوجود وإلى توحيد الله وتنزيهه فبذلك كان العقل الـكلى أسبق من النفس الـكلية وأفضل فسمى « بالسابق » وسميت النفس الـكلية « بالتالى » وبواسطة العقل الـكلى والنفس الـكلية وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية بل كل ما نشاهده فى هذه الدنيا من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، وما فى السموات من نجوم وكواكب ، فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الـكلى والنفس الـكلية وبمعنى آخر إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الاسماعيلية على العقل الـكلى فهو الإله عند الاسماعيلية ، وإذا ذكر الله عند الاسماعيلية فالمقصود هو العقل الـكلى ، فإذا

عرفنا ذلك كله استطعنا أن نقول إنهم لم يأتوا بهذه الآراء الفلسفية عبثاً ، بل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام الذى قالوا إنه من البشر ، ذلك أنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلى فى العالم العلوى يقابله الإمام فى العالم الجسمانى ، ومعنى هذا عندهم أن كل الأسماء والصفات التى خلعت على العقل الكلى هى أيضاً صفات وأسماء للإمام لأن الإمام مَثَلٌ للعقل الكلى ، فأسماء الله الحسنى التى قالوا إنها أسماء العقل الكلى هى أسماء للإمام ، فالإمام إذن هو الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، المنتقم الجبار .. الخ من الأسماء ، ولذلك قال ابن هانئ الأندلسى الشاعر فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال الشاعر أبو الحسن الأخفش فى مدح الآمر بأحكام الله :

بشر فى العين إلا أنه عن طريق العقل نور وهدى
جَلَّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسدا
تدرك الأفكار فيه بانيا كاد من إجلاله أن يعبدا

ويقول شاعر آخر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحى والتنزيلا
وإذا تمثل راكباً فى موكب عاينت تحت ركابه جبريلا

ويقول الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى فى مدح أخيه العزيز بالله :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس فى جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره ... تناهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التى سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر

وهكذا أخذ الشعراء يمدحون أئمتهم بهذه الصفات الباطنية التى لم يقل بها سواهم ، ذلك بالرغم من قولهم بأن الأئمة مخلوقون من الطين وفى ذلك يقول الشاعر المؤيد بالدين داعى الدعاة :

قد خلقتم من طينة وخلقنا ... نحن منها ، لكن بدا ترتيب

ولكن هذا الداعى الشاعر عاد فقال :

نعم قد أفاضها فى البرايا ... فتخلت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برأ اللـ ... ـه وغايات خلقه والسلام
فإليهم تنمى النفوس إذ را ... حت الأرض تنتمى الأجسام

ويجب أن نلاحظ أن هذه الصفات التى سبغوها على الأئمة والتى جعلته مثلا للعقل الكلى ، لم يستطيعوا أن يصرحوا بها للعامة أو للمبتدئين من المستجيبين ، بل لم يكن يعرفها إلا من استمع إلى داعى الدعاة نفسه فى المجالس التى كان يعقدها للخاصة فقط ، أما أمام جمهور الناس ولا سيما فى الدور الفاطمى بمصر فلم يكن الدعاة بقادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة إليها ، وإلا كان ينالهم المصريين ما ناله دعاة تأليه الحاكم بأمر الله ، ولذلك عمد الدعاة الاسماعيلية فى مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم السرية عن الناس ولم يظهروا منها إلا ما كان هيناً رفيقاً بالشعب ،

وما كان لا يخالف العقائد التي كانت سائدة في مصر ، وهي القريبة من مذهب الشافعي ومذهب مالك ، حتى إننا إذا درسنا كتب الفقه الاسماعيلي التي وضعت في الدور الفاطمي مثل كتاب « دعائم الإسلام » أو كتاب « الاقتصار » للقاضي النعمان نجد أنها قريبة كل القرب من مذهب الشافعي ومالك إلا ما جاء في هذه الكتب عن ولاية الإمام ووجوب طاعته ، كان ذلك كله أمام جمهرة الناس ، أما بين الخاصة من الدعاة وكبار رجال الدولة وممن يأكلون على كل الموائد ، فكان لهم أن يستمعوا إلى هذه الآراء السرية التي كان يلقيها داعي الدعاة ، وفيها مثل هذه العقائد التي تجعل من الأئمة شبه آلهة ، وهذه المجالس التي كان يلقيها داعي الدعاة هي التي تضم العبادة العلمية أي علم الباطن ، فقد ذهب الاسماعيلية إلى أن لكل شيء ظاهر محسوس تأويلا باطنياً لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة ، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخصوص ، بل ذهب الاسماعيلية إلى أبعد من ذلك فقالوا إن التأويل الباطن من عند الله خص به علي بن أبي طالب ، فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم خص بالتنزيل فكذلك علي بن أبي طالب فقد خص بالتأويل ، ومن ذلك المشاركة بين النبي وعلي ، فقالوا إذن بوجوب التأويل الباطن وضرورته واستدلوا على ذلك بقصة نبي الله موسى عليه السلام مع الرجل الصالح المذكورة في سورة الكهف

وكيف أن موسى عليه السلام وهو نبي مرسل من أولى العزم لم يمنحه الله علم الباطن بينما منح هذا العلم إلى الرجل الصالح وهو ليس بنبي مرسل وليس من أولى العزم ، وهكذا كان التأويل الباطن إلى على بن أبى طالب وهذا أورثه الأئمة من أعقابه بأمر من الله ، وعلى ذلك فالأئمة هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين وليس لأحد غيرهم هذا الحق الذى جاءهم بأمر الله تعالى ، ولكن ليس لهم أن يطلعوا أحداً على أسرار هذا الدين إلا لمن يستحق ذلك فقط ، ومن ثم ستر الاسماعيلية علوم الباطن إلا عن كبار الدعاة فقط ، وستروا هذه العلوم وما كتبه كبار الدعاة عن العالم كله وظلت محجوبة عن العالم هذه القرون المديدة إلى أن قدر لنا الحصول على بعضها وبذلك استطعنا الحديث عنهم ، وقد نظم الداعي المؤيد فى الدين عقيدة التأويل الباطن ووجوبه وضرورة ستره إلا لمن كان يستحقه بقوله :

وإن أجزنا ظاهر الكلام ... فى ذاك أسلمناه للخصام
ففى اختلافات القرآن كثره ... من كل قول مع كل زمره
يا قوم سر الملكوت هذا ... يجعل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الخضرا ... قال : متى لن تستطيع صبرا
وقال موسى: سوف ألقى صابرا ... فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا عما ... من قصها إن لم تكونوا نوّما
لعلكم أن تحسبوها سمرا ... إذن أسأتم للنفوس النظرا

وربَّ معنى ضمه كلام كمثل نور ضمه ظلام
باق بقاء الحب فى السنابل فى معقل من أحرز المعاقل
وإنما باب المعانى مقفل وأكثر الأنام عنها غفل
مفتاحه أضحى بأيدى خزنه بهم إلهى علمه قد خزنه
كيما يلوذ الخلق طرا بهم خصوا بهذا النور من ربهم

فنظرية التأويل الباطن نظرية دينية فلسفية تتلخص كما قلنا فى أن الله سبحانه وتعالى جعل كل معانى الدين فى المخلوقات التى تحيط بالإنسان ، فيجب إذن أن يستدل بما فى الطبيعة وبما على وجه الأرض على فهم حقيقة الدين ، وجعلوا المخلوقات قسمين : قسما ظاهراً للعيان ، وقسما باطناً خفياً ، فالظاهر يدل على الباطن ، فجسم الإنسان مثلا ظاهر وباطنه النفس وهكذا ، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية ، وما جاء فى ظاهر آيات القرآن هى معانى يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة وفرق الشيعة الأخرى ، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطناً لايعلمه إلا الأئمة وكبار دعاته ، وبالرغم من أنهم قالوا إن التأويل من عند الله ، وأنه خص بها على بن أبى طالب والأئمة من نسله نراهم مرة أخرى يقولون إن التأويل من خصائص حجة الإمام أو داعى دعاته ، وقد رأينا كيف كان كبار الدعاة مختلفين فى

آرائهم ، ومن ثم اختلف التأويل الباطن عنـدهم باختلاف شخصية الداعى الذى إليه التأويل ، وباختلاف موطن الداعى وزمن وجوده ، فإذا قرأنا تأويلات الداعى منصور اليمن قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب ، نجدها تميل إلى الغلو وهى أشبه عما كان يقوله أصحاب فرق الغلاة مثل الخطابية والسلمانية وغيرهما وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الاسماعيلية الفاطمية بالمغرب تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب ، ففيها التأليه الصريح للأئمة وفيها طرح الفرائض الدينية ، فتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبي للإمام ، وتأويل الصوم هو عدم إفشاء أسرار الدعوة ، وتأويل الحج هو زيارة الإمام ، وهكذا ينتهى بهم التأويل فى فارس فى هذا الوقت إلى طرح كل أركان الدين ، بخلاف ما كان عليه الأمر فى بلاد المغرب إذ لم يصرحوا بهذه الآراء إلا فى كتبهم السرية الخاصة ، أما التأويل الباطن فى العصر الفاطمى فى مصر فقد خفف هذا الغلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكاره واستبشاعه أمام الشعب ، فقالوا إن تأويل الصلاة هى دعوة الحق ، وأن الصيام هو فى الباطن عدم الحديث أسوة بما جاء فى القرآن الكريم فى سـورة مريم « إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا » وهكذا اضطر الدعاة المؤولون فى العصر الفاطمى فى مصر إلى التظاهر بتخفيف

تأويلاتهم التى كانت قبل هذا العصر ، بل اضطروا إلى تغيير التأويل الذى ظهر فى بلاد المغرب قبل استقرارهم فى مصر ، فمثلا فى تأويل قوله تعالى « والفجر وليال عشر والشفع والوتر » قال الداعى بالمغرب إن الفجر هو على بن أبى طالب وكل إمام بعده ، وأن الشفع والوتر هما الحسن والحسين ولدا على بن أبى طالب ، ولكن الداعى فى مصر أوّل هذه الآية إلى أن « الفجر » هو المهدى المنتظر لأنه يظهر بعد انتشار الضلال ، كما أن الفجر يأتى بعد شدة الظلام ، فبالرغم من أن تأويل الداعى بالمغرب يتفق فى هدفه الأخير مع تأويل الداعى بمصر ، فإن هذا الأخير كان أكثر منه حذراً فى التصريح بأن الفجر هو الإمام ، مع أن الإمام فى عصره هو مهدى عصره ؛ معنى هذا كله أن التأويل فى مصر الفاطمية كان أكثر اعتدالا مما كان عليه التأويل فى غير مصر ، وبعد انتقال الدعوة من مصر إلى اليمن وأصبحت تعرف بالدعوة الاسماعيلية الطيبية ، عادت التأويلات الباطنة مرة أخرى إلى الغلو ، مع أن دعاة اليمن أخذوا أكثر تأويلاتهم عن دعاة مصر ، وبسبب دخول الأئمة فى الستر ، وعدم وجود دولة للطائفة ، عاد الاسماعيلية إلى التقية والسرية بحيث لا يسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل ، وظل الأمر على ذلك إلى الآن عند طائفة البهرة بفرعيها الداودى والسليمانى .

أما الاسماعيلية النزارية (الاسماعيلية الشرقية فى فارس) فقد اعتنقوا العمل بالتأويل الباطن من دون الظاهر، وتركوا الظاهر جملة وتفصيلا . والذى يظهر لى من التأويل الباطن فى كل أدوار الاسماعيلية أنه وضع لخدمة غرض واحد فقط وهو إغداق صفات التمجيد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الاسماعيلية ، بحيث سهل علينا أن نؤول على نحو ما كانوا يؤولون ، فكل فضيلة وردت فى القرآن الكريم أو فى الأحاديث النبوية تؤول على أنها الإمام لأنهم قالوا إن القرآن الكريم نفسه تأويله الإمام ، والأهلة هم الأئمة ، والشمس الإمام ، والقمر الإمام ، والسماء هى الدعوة ، والعرش الدعوة ، والأرض الدعوة ، والجبال هم الدعاة ، والملائكة هم الدعاة ، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة ، وهكذا كان تأويلهم الباطن مما يجعلنا نستطيع أن نسايرهم فى تأويلهم ونقيس على ماقالوه .

ولكن تأويلهم الباطن لقصص الأنبياء لا يمكن أن يقول بها إلا من قرأها فى كتبهم ولا يمكن أن يقيس على ما قالوه ، فهم يذهبون إلى أن التفسيرات التى ذكرها المفسرون جعلوا الأنبياء مذنبين خاطئين بينما الأنبياء معصومون عن كل نقيصة وهى عصمة ذاتية ، لذلك يستنكر الاسماعيلية تفسير المفسرين ، فمثلا ما قاله المفسرون عن قصة آدم وخروجه من الجنة بسبب ثمرة أكلها لم يقبله الاسماعيلية ، فقد قال أحد دعاتهم فى الرد على قول هؤلاء

المفسرين : « جاء فى التفاسير أن الله أسكن آدم الجنة وأباح له ثمراتها غير الشجرة المستثناة منها ، قالوا هى الحنطة ، والحنطة من حيز الزروع لا من جملة الأشجار ، وقالوا هى التين أيضاً ، وهذا الكلام خارج عن المعتاد أن يكون صفوة الله سبحانه الذى يصطفيه ويسجد له ملائكته ويسبح له جنته يشح عليه بنبتة من نباتها أو من شجرة من شجراتها ، فلمن تراه كان يدخرها لأعز منه إنساناً وأعلى من رتبته رتبة ومن مكانه مكاناً ، وبخل المرء بالشىء يقتضيه حاجة إلى الاستئثار به أو إعداده إياه لمن يكرم عليه ، ولا حاجة بالله إلى طعامه يطعمه فيكون قد ادخر ذلك لنفسه ، وإن كان جميع ذلك ممتنعاً من الله سبحانه مستحيلا ، وواجب أن يطلب العاقل سبيلا ينفى عن الله سبحانه فى هذه المضايقة ذميم التهم ، وعن صفوته آدم مذمة الشره المفرط والنهم » . أما ما قاله علماء الاسماعيلية فى تأويلهم الباطن فهو أن آدم لم يكن أول الخلق كما تقول جميع الأديان السماوية ، إنما كان قبله عالم عاش بينهم آدم ، وأن آدم هذا كان له حجة هو الذى رمز إليه فى القرآن الكريم بحواء ، أى أن حواء عندهم لم تكن أنثى وليست بزوجة آدم ، إنما كانت أقرب الدعاة إلى آدم ، وأن آدم وحواء كانا ينعمان فى دعوة الإمام الذى كان قبل آدم وهى دعوة إسماعيلية وهى التى عبر عنها الله بالجنة ، فتطلع آدم إلى مرتبة دينية أعلا من مرتبته ، فأخرجه الإمام من الدعوة ،

ولكن آدم عاد إليها بعد أن تاب الإمام عليه ؛ هذا هو ملخص تأويل قصة آدم عند بعض دعاة الاسماعيلية ، وقد ذكرنا من قبل اختلاف الدعاة فى التأويل ، فهناك تأويلات أخرى لا حاجة إلى ذكرها هنا ، وكذلك قولهم فى تفسير ما جاء عن إبراهيم الخليل عليه السلام فى القرآن الكريم « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون » فالكواكب هم الدعاة الذين أخذ عنهم إبراهيم علوم الدعوة الاسماعيلية حتى انتهى ما عندهم فاتجه إلى الأخذ عن حجة النبى الذى كان قبله ، فلما أتى على جميع ما عنده من العلوم طلب العلم عن النبى نفسه حتى هيأه النبى إلى أن يحل محله بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذا النحو يسير التأويل الباطن الذى يخالف ما عليه جمهور المفسرين والعلماء ، وإذا بحثنا عن السبب الذى من أجله اتجهوا فى تأويل قصص الأنبياء إلى هذا الاتجاه ، نجد أن من عقائدهم ما أطلقتُ عليه « نظرية الدور » وتتلخص هذه النظرية فى أن الحياة تتجدد وهى مقسمة إلى فترات ست وعلى رأس كل فترة نبى ، وبين كل نبى وآخر أئمة يخلفون النبى فى شئون دينهم ، وأن ما يحدث فى فترة من هذه الفترات يحدث ما يشبهه تماماً فى

الفترات الأخرى ، ويروى فى ذلك الحديث النبوى « لتسلكن سبل من سبقكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل حتى لو دخلوا خشرم ضب لدخلتموه » فما حدث فى عصر آدم عليه السلام هو نفس ماحدث فى عصر إبراهيم وفى عصر نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة السلام ، ولذلك كانت صفات هؤلاء الأنبياء واحدة بحيث تستطيع أن تقول مثلا إن موسى هو آدم عصره وهو نوح عصره وعيسى عصره . . الخ ، وأن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء فى مرتبة واحدة أيضاً وصفات واحدة ، ونتيجة ذلك أن إمام العصر وهو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة فهو صاحب كل صفات الأنبياء والأئمة السابقين ، ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلى فى الدور الفاطمى بأنه خليل الله وكليم الله وأنه المسيح الذى يحيي الموتى إلى غير ذلك من خصائص الأنبياء ، وبناء على ذلك نستطيع أن نفهم قول شعرائهم يخاطب إمامه صاحب القاهرة :

سلام على العترة الطاهرة ... وأهلا بأنوارها الزاهره
سلام بديا على آدم ... أبى الخلق باديه والحاضره
سلام على من بطوفانه ... أديرت على من بغى الدائره
سلام على من أتاه السلام ... غداة أحفت به النائره
سلام على قاهر بالعصا ... عصاة فراعنة جائرة
سلام على الروح عيسى الذى ... بمبعثه شرفت ناصره

سلام على المصطفى أحمد ولى الشفاعة فى الآخره
سلام على المرتضى حيدر وأبنـائه الأنجم الزاهره
سلام عليك فحصولهم لديك أيا صاحب القاهره

ويقوم شاعر آخر فى مدح إمامه :

يا مسيحا يكلم الناس طفلا ضل فى شأنه أخو اللب لبا
لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا

فهكذا كان رأيهم فى قصص الأنبياء فقد أولوا ما ورد فى القرآن الكريم عن الأنبياء تأويلا يتفق مع هدفهم فى إسباغ فضائل خاصة على الأئمة ، بل نرى فى كثير من كتبهم السرية أن الإمام قائم الزمان من الأنبياء أولى العزم ولكننا وقد عرفنا شيئاً عن عقيدة الاسماعيلية فى الإمامة ، وما يهدف إليه علم الباطن ، وجب أن نفرق بين نوعين من الإمامة عندهم ، فهناك إمام « مستودع » و « إمام مستقر » ، ولتقريب الفرق بينهما إلى الأذهان ، نفرض أن أحد الأئمة توفى وكان ولى عهده طفلا صغيراً أو فى سن لا يستطيع معه أن يباشر سلطته الدينية والزمنية ، عندئذ يختار أقرب أقاربه إليه ليتولى السلطان ويلقب بالإمام المستودع بدلا من الإمام الحقيقى الصغير حتى يشب هـذا ويتسلم ميراثه منه فيصبح صاحب مرتبتى « الاستيداع والاستقرار » والإمام المستودع لا يتمتع بسلطان روحى ، وليس له أن ينقل

مرتبة الإمامة إلى أحد أبنائه ، بل يحتفظ بمرتبة الإمامة لصاحبها الشرعى ويحكم باسم الإمام الشرعى ، وهو مع ذلك كله معصوم عصمة مكتسبة من مرتبته ، أما الإمام المستقر فهو صاحب النص الشرعى وصاحب السلطان الدينى وعصمته ذاتية ، وهو صاحب الصفات التى سبق الحديث عنها . وعندما كان الأئمة فى دور الستر ، اتخذوا أئمة مستودعين تعمية لأعدائهم وسترا على صاحب الحق الشرعى فى الإمامة ، وربما كان كثرة الأئمة المستودعين فى دور الستر من أسباب عدم الوصول إلى معرفة حقيقة نسب الفاطميين ، وسبب هذا الاضطراب بين المؤرخين فى أسماء الأئمة حتى وقتنا هذا حتى إن الأستاذ برنارد لويس الأستاذ بجامعة لندن يذهب إلى أن عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب كان إماماً مستودعاً وأن القائم بأمر الله الذى وليه فى الحكم هو الإمام المستقر وعلى ذلك فالقائم ليس ابن المهدى ، ولكن هذه كلها افتراضات لا يمكن أن نصل فيها إلى نتيجة حاسمة .

ويذهب أكثر الذين تحدثوا عن عقائد الاسماعيلية من القدماء والمحدثين بأن الاسماعيلية يقولون بالتناسخ ، أى بانتقال الروح بعد الموت إلى إنسان آخر أو إلى حيوان أو نبات على نحو ما نراه فى العقيدة البوذية مثلا ، ولكن بعد أن وصلتنا كتب الدعوة الاسماعيلية السرية نقول إن الاسماعيلية لا يدينون بالتناسخ بل ذهبوا إلى أن الإنسان بعد موته يستحيل عنصره الترابى

(جسمه) إلى ما يجانسه من تراب ، وينتقل عنصره الروحانى (الروح) إلى الملأ الأعلى ، فإن كان الإنسان فى حياته مؤمناً بالإمام فهى تحشر فى زمرة الصالحين وتصبح ملكا مدبراً ، وإن كان شريراً عاصياً لإمامه حشرت مع الأبالسة والشياطين وهم أعداء الإمام ، وهذا هو عندهم تأويل الثواب والعقاب ، فالجنة عندهم هى طاعة الإمام والنار هى الخروج عن طاعة الإمام ، وكثيراً ما أرى فى كتبهم اصطلاح « المسخ » بمعنى أنه خرج عن الدعوة الاسماعيلية بعد أن كان من أبنائها ، بينما المصطلح الفلسفى للمسخ هو انتقال الروح إلى حيوان .

كذلك ذهب القدماء إلى القول بأن الاسماعيلية دانوا بالحلول بمعنى حلول اللاهوت فى الأئمة ، والحقيقة أن الاسماعيلية لم يذهبوا إلى هذه العقيدة بصريح العبارة ، إنما لجأوا إلى القول بأن الإمام خلق من نور الله أو أن نور الله حل به ، وقد انتشرت فكرة الحلول بين الاسماعيلية فى فارس فى دور الستر ثم خفت بعض الشىء فى الدور الفاطمى ثم عادت إلى الظهور بوضوح وصراحة فى دور الاسماعيلية النزارية ، أما عند البهرة فهى موجودة فى شىء من الغموض أو قل فى شىء من التلاعب اللفظى مثل ما كانت فى الدور الفاطمى ، ونحن نعلم أن طائفة الدروز كانوا من الاسماعيلية ثم انشقوا عنهم بسبب تصريحهم بأن الإله حل فى الحاكم

بأمر الله فأصبح هو المعبود ، كما قالوا بالتناسخ وغيره من الآراء التى أبعدتهم عن معتقدات الاسماعيلية .

ويطلق القدماء اسم « السبعية » على الاسماعيلية للقول بأن العالم بنى على أصول سباعية ، وقد رد الداعى المؤيد فى الدين على ذلك فى كتاب « المجالس المؤيدية » بقوله : « فأما موضوع اسم الرفض والتسبيع من جهتهم عليكم فهو ظلم ، . . وأما التسبيع فهو نعت أصل من جملة أصول كثيرة تركوا وسمكم بها واقتصروا على واحد من جملتها وذلك أن الديانة مبناها توحيد الواحد الأحد الصمد سبحانه ، والطريق إلى معرفة التوحيد معرفة ازدواج الأشياء ، قال الله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها » . وقال رسول الله (ص) « خلق الله الأشياء مزدوجة ليكون دلالة على وحدانيته » . وهذا أصل تاه فيه الثنوية ، والثلاثة أصل تاه فيه النصارى ، والأربعة التى هى مقابل الأركان الأربعة أصل ، والخمسة التى هى بمقابلة الحواس الخمس أصل ، والستة التى هى بمقابلة الأيام الستة فيها خلق الله السموات والأرض أصل ، والسبعة أصل ، والثمانية التى هى بمقابلة أبواب الجنة الثمانية وحملة العرش أصل ، والتسعة التى هى بمقابلة الآيات التسع أصل ، والعشرة التى هى بمقابلة ليال عشر وغير ذلك أصل ، وأحد عشر التى هى بمقابلة تكبيرات الصلاة كل ركعتين أصل ، واثنتى عشرة التى هى بمقابلة اثنى عشر نقيباً أصل ، وسبع عشر التى هى بمقابلة

الصلاة أصل ، وتسعة عشر التي هى بمقابلة خزانة النار أصل ، والأصول غير ذلك كثيرة ، فلا وجه للتخصيص بالسبعة . هكذا رد الداعى الاسماعيلى على من رماهم بالتسبيع ، والحقيقة أن الاسماعيلية أخذوا ما قاله الفلاسفة الفيثاغوريون القدماء الذين جعلوا كل الأعداد أصولا لعقيدتهم ، وصبغوا آراء الفيثاغوريين بالصبغة الإسلامية على حسب العقيدة الاسماعيلية ، ومن ثم ظهرت عندهم عقائدهم فى الأعداد وما يقابلها من أصول دينية دون أن يقفوا على عدد بعينه ، فالواحد هو العقل الكلى أو القلم ، والاثنان هما العقل الكلى والنفس الكلية أى القلم والروح ، والثلاثة هم محمد وعلى وفاطمة ، والخمسة هم القلم واللوح وميكائيل واسرافيل وجبريل ، وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وهم الإمام والحجة والداعى والمأذون والمكاسر ، وهكذا جعلوا لكل عدد ما يقابله من الدين . وكانوا متأثرين فى ذلك بالفلسفة الفيثاغورية .

والذين يدرسون عقائد الاسماعيلية يستطيعون أن يدركوا أن هذه العقائد مزيج عجيب من مجموعة المذاهب والديانات والآراء الفلسفية القديمة التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة والآراء المتباينة ، وأن الاسماعيلية أخذوا هذه الآراء والمعتقدات وأخضعوها لفكرتهم عن الإمامة بعد أن صبغوها بالصبغة الإسلامية ، حتى إن الباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد

الاسماعيلية وردها إلى أصولها القديمة ، فمثلا قال قدماء المصريين بانتقال روح فرعون بعد موته إلى العالم العلوى فتصبح من الآلهة المؤثرة فى العالم وبهذه المقالة ذهب الاسماعيلية بأن روح الإمام تصبح بعد وفاته ملكا أو عقلا من العقول الروحانية المدبرة لعالم الكون الفساد ، وأخذ الاسماعيلية عن أفلاطون نظرية المثل التى تقول بأن ما فى العالم الحسى أشباح لمثل فى العالم العلوى فقال الاسماعيلية إن ما فى عالم الدين مُثُل لمثولات فى العالم الروحانى ، وأخذ الاسماعيلية رأى الأفلاطونية الحديثة فى الابداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلى ، وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس (الكلمة) فجاء الاسماعيلية وقالوا إن الكلمة التى خلق عنها العالم هى كلمة « كنْ » التى وردت فى الآية القرآنية « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وأن كلمة كن مكونة من الكاف والنون ، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلى ، والنون رمز على اللوح أى النفس الكلية ، وبهذا فسر الاسماعيلية قوله تعالى « نون والقلم » أن الله يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم ، وفيها يقول الشاعر :

بديع شكر ووسيع حمد — لمبدع الكاف الرفيع المجد
أكمله سبحانه إذ أبدعه — مبتديا واخترع النون معه
ثم أقام منهما ما قد علا — لخفة وما لثقل سفلا
من فلك طول الزمان دائر — ومن شهاب طالع وغائر

والأرض لما أصبحت مهادا ومن جبال رسخت أوتادا
وحيوان باختلاف الجنس كاملة فيهـا أداء الحس
ومن أناس سخروها عنوه إذأصبحوامنهاالعمرى الصفوه
بألسن عن أنفس مترجمه كاشفة عن عشواء كل مظلمه

واقتبسوا من الأفلاطونية الحديثة كل فلسفة الفيوضات وترتيبها بحيث إذا قرأنا كتب الحقيقة الاسماعيلية نجد أنفسنا أمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ولعل أكثر الآراء أثراً فى الاسماعيلية هذه الآراء التى فى كتب الآباء المسيحيين ، ففى كتب الاسماعيلية التى ألفت قبل دور الاسماعيلية الفاطمية فى مصر ، أى فى الدور المغربى آراء هى من صميم العقيدة المسيحية ، بل صرح جعفر بن منصور اليمن فى كتابيه « أسرار النطقاء » و « سرائر النطقاء » بأن ترتيب الدعاة هو نفس ترتيب رجال الكنيسة المسيحيـة ، واعتراف دعاة الاسماعيلية بصلب المسيح هو تأثير قوى من تعاليم المسيحية ، ونحن نعلم أن القديس أوجستين كان من أوائل الذين أولوا الكتاب المقدس تأويلا باطناً ، فجاء الاسماعيلية وأولوا الكتب المقدسة بما فيها القرآن الكريم ، وفى الدور الفاطمى بمصر نجد الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى مثلا يستشهد بآيات من التوراة والإنجيل ويؤولها تأويلا يتفق مع عقيدته فى الإمامة ، بل يجعل آيات التوراة تشير إلى إمامه . كل ذلك بتأثير المسيحية على العقيدة

الاسماعيلية تأثيراً جعل مسيحيي مصر يقولون إن المعز لدين الله اعتنق المسيحية وهو قول لا أساس له من التاريخ .

فالعقائد الاسماعيلية إذن مجموعة آراء مختلفة تطورت من بلد إلى آخر ومن زمن إلى زمن بحيث يصعب دراستها ومعرفتها ، فكانوا يقولون بآراء فى بلد ويقولون بغيرها فى بلد آخر ، أو يأتون بنقيضها بعد فترة من الزمن ، وقد استفاد الاسماعيلية من هذا التطور وذلك الاختلاف فإذا جادلت أحدهم فى مسألة من المسائل فهو ينكر نسبة هذه المسألة إلى الاسماعيلية ، فإذا جابهته بها فى كتاب من كتبهم فهو إما ينكر نسبة الكتاب إلى الاسماعيلية أو أخرج لك كتاباً آخر من كتبهم به ما يناقض ما فى الكتاب الأول ، وأذكر أنى كنت أناقش أحد علماء البهرة فى مسألة دقيقة : وهى قولهم بأن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق هو الناطق السابع (أى النبى السابع) ،إذا به ينكر هذا القول إنكاراً تاما ، فلما ذكرت له أسماء كتبهم التى بها هذا القول ، ذهب إلى أن جميع هذه الكتب وقع بها تحريف من النساخ ، وأن النسخ الصحيحة من هذه الكتب فى خزانة الدعوة بالهند ، ثم بعد عدة سنوات قدر لى أن ألتقى به فى الهند ، بل فى البلد الذى به خزانة كتب دعوتهم ، فطلبت منه أن يطلعنى على النسخ الصحيحة التى يحتفظون بها فوعدنى ، وانتظرت أن يفى بوعده ،

ولـكننى عدت من الهند دون أن أقابله مرة أخرى .

* * *

(وبعد) فبالرغم من الأبحاث العديدة التى ظهرت بمختلف اللغات فى الربع قرن الأخير عن الاسماعيلية فإن هناك عدة نواحى لا تزال غامضة ، ومجال الحديث عن الاسماعيلية ذو سعة لتشعب نواحيها واختلاف آرائها ، ثم إن أكثر كتب الدعاة لا تزال مجهولة أو مستورة فى خزائن الطائفة ، فلا تزال دراسة الاسماعيلية تحبو وتحتاج إلى جهود ومثابرة حتى تظهر بجلاء ، وتتضح معالم هذه الطائفة التى كان لها أثرها القوى فى كل بلد ملـكوه ، ونحن فى مصر الآن بالرغم من عدم وجود مصرى واحد على مذهب الاسماعيلية لا نزال متأثرين بمـا كان عليه القوم فى العصر الفاطمى ، فنحن لا نزال نقدس أهل البيت ، ولا نزال نبنى الأضرحة والقباب لأهل البيت ، ولا نزال نقيم الموالد لهم ، بل الخطب المنبرية هى صورة من التى كانت فى العصر الفاطمى .

ولا يزال أوشاب الناس فى مصر يهجون بعضهم بعضاً بقولهم « يا عمر » ، وهذا أثر من آثار العصر الفاطمى إذ كانوا يسبون الصحابة ، ولا يزال الطبقة المتخلفة من المصريين يزعمون أنهم يرون علياً بن أبى طالب يحييهم وهم فى طريقهم إلى الحج ، إلى غير ذلك من معتقدات العوام التى هى من تراث العصر

الفاطمى الاسماعيلى لم يستطع الزمن أن يمحوها من عقول بعض المصريين ، فإذا كان سلاطين العصر الأيوبى والعصر المملوكى قد أكثروا من إنشاء المدارس لمقاومة الآراء الاسماعيلية فى مصر ، واتخذوا من العلم سلاحاً لمحاربة هذه الآراء ، فجدير بنا أن ندرس الآراء الاسماعيلية على حقيقتها من كتبهم حتى يتبين لنا حقيقتهم ؟

المراجع الهامة

لما كانت طائفة الاسماعيلية فرقة من الفرق الدينية ، لها عقائدها الخاصة ، كان على الباحث أن يتجه فى دراسته عن الاسماعيلية إلى الكتب التى وضعها علماء هذه الطائفة ، وهنا أهم هذه الكتب مرتبة حسب تاريخ المؤلفين . وهى الكتب التى رجعنا إليها ، وقد قسمناها إلى قسمين : القسم الأول وهى كتب الدعوة الغربية ، والقسم الثانى كتب الدعوة الشرقية :

أولا : كتب الدعوة الغربية وكتب ما قبل الانقسام :

١ — «رسالة الرشد والهداية» للداعى ابن حوشب منصور اليمن ، نشرها محمد كامل حسين بمجلة Collectanae العدد الأول سنة ١٩٤٨

٢ — «سرائر النطقاء» لجعفر بن منصور اليمن ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٣ — «أسرار النطقاء» لجعفر بن منصور اليمن ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤ — «كتاب الكشف» لجعفر بن منصور اليمن ، نشره الأستاذ ستروتمان

٥ — « كتاب دعائم الإسلام » للقاضى النعمان بن محمد ، نشره الأستاذ آصف على أصغر فيضى

٦ — « كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة » ، للقاضى النعمان ابن محمد ، نشره محمد كامل حسين

٧ — « كتاب الاقتصار » للقاضى النعمان بن محمد ، نشره محمد وحيد ميرزا

٨ — « تأويل دعائم الإسلام » للقاضى النعمان بن محمد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٩ — « كتاب الزينة » لأبى حاتم الرازى ، نشره الدكتور حسين فيض الله الهمدانى.

١٠ — « كشف المحجوب » لأبى يعقوب السجستانى ، نشره الأستاذ هنرى كوربان

١١ — «إثبات النبوة» لأبى يعقوب السجستانى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

١٢ — « الينابيع » لأبى يعقوب السجستانى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

١٣ — « ديوان ابن هانئ الأندلسى » ، نشره الدكتور زاهد على

١٤ — « ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله » ، نشره محمد كامل حسين وآخرون.

١٥ — « سيرة الأستاذ جوذر » لأبي على منصور الجوذرى ، نشره محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شميرة

١٦ — « استتار الإمام » لأحمد بن ابراهيم النيسابورى ، نشره الأستاذ ايفانوف

١٧ — « إثبات الإمامة» لأحمد بن ابراهيم النيسابورى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

١٨ — « راحة العقل » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، نشره محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمى

١٩ — « الرسالة الدرية فى معنى التوحيد » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، نشره محمد كامل حسين

٢٠ — «رسالة النظم فى مقابلة العوالم» لأحمد حميد الدين الكرمانى ، نشره محمد كامل حسين

٢١ — «مجموعة رسائل الكرمانى » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٢٢ — «مجموعة رسائل الدروز» ، مخطوطة بدار الكتب المصرية

٢٣ — « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، نشره محمد كامل حسين

٢٤ — « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة» ، نشره محمد كامل حسين

٢٥ — « المجالس المؤيدية » ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٢٦— « ديوان ناصر خسرو » ، نشر بطهران سنة ١٩٢٩
٢٧— « سفرنامه » لناصرخسرو ، ترجمة الدكتور يحي الخشاب.
٢٨— « روشانانامه» لناصر خسرو، نشر منيربادخشانى ببومباى.
٢٩— « خوان الإخوان » لناصر خسرو ، نشر الدكتور يحي الخشاب
٣٠— « كلامى بير » لناصر خسرو ، نشر الأستاذ و . إيڤانوف
٣١— « رسالة فى الرد على من ينكر العالم الروحانى » لشهريار ابن الحسن ، نسخة خطية بمكتبة محمد كامل حسين
٣٢— « المجالس المستنصرية » للداعى ثقة الإمام علم الإسلام ، نشر محمد كامل حسين
٣٣— « السجلات المستنصرية » ينسب إلى المستنصر بالله ، نشر الدكتور عبد المنعم ماجد
٣٤— « الهداية الآمرية » ينسب إلى الإمام الآمر بأحكام الله ، نشر الأستاذ آصف على أصغر فيضى
٣٥— « كنز الولد » للداعى إبراهيم بن الحسين الحامدى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
٣٦— « مجموعة التربية » للداعى محمد بن طاهر الحارثى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
٣٧— « الأنوار اللطيفة » للداعى محمد بن طاهر الحارثى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٣٨ — « تنبيه الغافلين » للداعى حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٣٩ — « الشموس الزاهرة » للداعى حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٠ — « زهر بذر الحقائق » للداعى حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤١ — « دامغ الباطل » للداعى على بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٢ — « الذخيرة » للداعى على بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٣ — « تاج العقائد » للداعى على بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٤ — « سمط الحقائق » للداعى على بن حنظلة ، نشره الأستاذ عباس العزاوى المحامى ببغداد

٤٥ — « عيون الأخبار » للداعى عماد الدين إدريس ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٦ — « زهر المعانى » للداعى عماد الدين إدريس ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٤٧ — « الأزهار » للداعى حسن بن نوح ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

ثانياً : كتب الدعوة الشرقية وهى كتب باللغة الفارسية ترجم بعضها إلى الإنجليزية :

1— True Meaning of Religious (Risala der Haqiqat i Din) by Shihabu'd din Shah. Translated and edited by Prof. W. Ivanow.
2— The Truth worshippers of Kurdistan, Ahli Haqq. Texts ed. and trans. by W. Ivanow.
3— Pandiyat-i Jawanmardi. ed. and Trans. by W. Ivanow

ثالثاً : أبحاث وكتب عن الاسماعيلية :

١ — « نظرية المثل والممثول وأثرها فى الشعر الفاطمى » ، لمحمد كامل حسين
٢ — « فى أدب مصر الفاطمية » ، لمحمد كامل حسين
٣ — « أثر التشيع فى الشعر المصرى بعد الدولة الفاطمية » ، لمحمد كامل حسين
٤ — « بين التشيع وأدب الصوفية بمصر فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، لمحمد كامل حسين
٥ — « الفاطميون فى مصر » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن
٦ — « عبيد الله المهدى » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور شرف

٧ — « المعز لدين الله » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور شرف

٥ — « خمس رسائل إسماعيلية » ، للأستاذ عارف تامر

٦ — « منتخبات إسماعيلية » ، للدكتور عادل العوا

1— The Rise of the Fatimids by W. Ivanow

2— A Guide to Ismaili Litestature W. Ivanow

3— A creed of the Fatimids by W. Ivanow

4— Studies in Early Persian Ismailism by W.Ivanow

5— The alleged Founder of Ismailism by W.Ivanow

6— Nasiri Khusrow and Ismailism by W. Ivanow

7— Fragments relatifs à la Doctrine des Ismailis by S. Guyard.

8— Essai sur l'Histoire des Ismaéléens de la Perse by M. C. Defrémery.

9— Mémoire sur les Carmathes des Bahrain et les Fatimides by M. J. DeGoeje.

10— The Origins of Ismailism by B. Lewis.

11— Esquisse d'une bibliographie Carmathe by L. Massignon.

12— Histoire de l'order des Assassins by Von. Hammer. Trad. par Hellest.

13— The Order of Assassins by Marshall G. S. Hodgson.

رابعاً : الكتب التاريخية العامة ، وكتب الطبقات والفرق ، وهي كتب معروفة للباحثين .

المكتبة التاريخية

ظهر منها :

١ — المجمل فى تاريخ الأندلس :

للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى

٢ — الإسلام فى إسبانيا :

للدكتور لطفى عبد البديع

٣ — التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر :

للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال

٤ — طائفة الإسماعيلية . تاريخها ونظمها وعقائدها :

للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

يظهر قريبا :

١ — الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية فى السودان :

للدكتور جلال يحيي

٢ — تاريخ السلاجقة :

للدكتور عبد النعيم حسنين .

٣ — تطور المسألة المصرية :
للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٤ — دراسات فى التاريخ البطلمى :
للأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى

٥ — المغول فى التاريخ :
للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد

٦ — تاريخ إمبراطورية الروم تأليف شارل ديل
ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

٧ — موجز تاريخ الاشتراكية : تألىف نورمان ماكنزى
ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميليه .

٨ — داود باشا آخر المماليك :
للأستاذ عبد العزيز سليمان نوار

٩ — عمان وشرق أفريقية فى عهد البو سعيد :
للأستاذ جمال زكريا قاسم

١٠ — مصر كما صورها هيرودوت :
تحقيق الأســتاذ الدكتور أحمد بدوى والدكتور صقر خفاجة .

١١ — غرب أفريقية بين العروبة والاستعمار :
للأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل .

١٢ — الجبرتى وعصره :

للأستاذ عبد القادر طليمات

١٣ — مدخل للحضارة الإسلامية :

للدكتور محمد العلائى

١٤ — ثورة إفريقية :

للدكتور محمد أنيس

١٥ — القاهرة والحياة الاجتماعية فيها فى عصر الأتراك العثمانيين :

للأستاذ حسن عبد الوهاب .

١٦ — قناة السويس :

للدكتور عبد العزيز الشناوى

١٧ — الإقطاع فى أوربا : تأليف جيزنهوف

ترجمة الدكتور حسن حبشى

١٨ — فتح العرب فارس :

للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف

١٩ — سيف الدولة الحمدانى :

للأستاذ مصطفى الشكعة

٢٠ — نظم الحكم عند اليونان والرومان :

للدكتور لطفى عبد الوهاب

٢١ — صور من الحياة فى مصر فى عصر الرومان :

للدكتور عبد اللطيف أحمد على

٢٢ — قصة التصوير فى الإسلام :

للدكتور جمال محرز

٢٣ — التاريخ . فلسفته وأهدافه :

للأستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان

٢٤ — أوغندا بين الاستعمار البريطانى والكفاح الوطنى :

للأستاذ محمد عبد المنعم محمود

٢٥ — ماتزينى :

للأستاذ محمود الخفيف